

97

وزارة الثقافة  
الهيئة العامة السورية للكتاب  
سلسلة أدب الخيال العلمي

# يوجينيا

رواية من الخيال العلمي

صلاح معاطي



يوجينيا

## سلسلة الخيال العلمي

رئيس مجلس الإدارة  
محمد ياسين صالح  
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول  
د. شهلة سيد عيسى  
المدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب

رئيس التحرير  
د. طالب عمران

التدقيق اللغوي  
د. محمد قاسم

الإشراف الطباعي  
أنس الحسن

الإخراج الفني  
ردينة أظن

تصميم الغلاف  
عبد العزيز محمد

سلسلة الخيال العلمي (٩٧)

# يوجينيا

رواية من الخيال العلمي

صلاح معاطي



(١)

## ناجي خلوصي

من أنا؟

أفتح عيني ببطء شديد . أرى كل شيء حولي، كأنه ضباب ودخان، ولا أجد إنسانا قط . ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟ وما هذه الأربطة التي تغطي وجهي؟ هل تعرضت لحادث فقدت معه ذاكرتي؟ أم إنني مختطف من قبل عصابة خطيرة؟ أصبح بصوت عال:

- هل أحد هنا؟ هل أحد هنا؟

لا مجيب . ياه أشعر بآلام شديدة في جبهتي، بل في كل أنحاء جسدي، أحاول الوقوف فلا أستطيع، كأنني مقيد بسلاسل لا فكاك منها . هل أصابني الشلل؟ أم إن الدوار الذي أشعر به يمنعني من الوقوف على قدمي . ما هذا الطنين المزعج الذي يصفر في أذني؟ تدور عيني في المكان محاولة أن تتعرف على معالمه، بينما غشاشة ضبابية لا تكاد تجعلني أرى . أمخزن هذا أم كهف، أم جراج، أم مستودع للذخيرة، منسي منذ الحرب العالمية الثانية؟ يبدو هذا من الصناديق الخشبية المتراسة بعضها فوق بعض في كل مكان، وكذلك إطارات السيارات القديمة وجراكن الوقود، وتلك الرائحة العطنة التي تغزو أنفي فتزكمها .

ما هذه الرسومات الغربية التي على الجدران؟ أمامي مباشرة رسم لبومة دون عين، وهناك أشكال هندسية أشبه بفرجار متعامد على

مسطرة قائمة، في وسطهما عين وحيدة تخرج منها أشعة كالشمس. نفس الرسم موجود على الباب الحديدي للمستودع. وكأنني في معبد قديم.

أخيراً استطعت الوقوف بعد عدة محاولات فاشلة، لكن قدميَّ مثبتتان في الأرض لا تقوى على التحرك، وجسدي يترنح في إعياء حتى كدت أسقط ثانية. استندت إلى جدار قريب، ورحت أتأمل تلك الغرفة التي وجدت نفسي فيها، لا ليست غرفة، بل قاعة فسيحة مرتفعة السقف تعلوها نوافذ كالشراعات، بابها الحديدي موصل وعليه قفل كبير. إذن أنا سجين. لا شك في هذا.

أشعر بالرغبة في القىء. ألا يوجد حمام؟ ربما تكون هذه الحجرة التي على يساري. أمشي بصعوبة نحوها متكئاً على الجدار. بالفعل حمام صغير، على بابه نفس الفرجار المتعامد على المسطرة والعين الواحدة. فتحت الباب ودخلت، يشبه تلك الحمامات التي في محطات البنزين القديمة، بدا ذلك من بلاط القيشاني الصغير النصفي الذي على الجدار، وباقي الجدار والسقف مطلي بزيت أصفر اللون، لكن الرطوبة أكلت معظم الدهان، والعنكبوت احتل المكان، فلم يزره أحد غيري.

لفتت انتباهي مرآة صغيرة مكسورة أعلى الحوض، علاها الغبار والبخار فصارت أشبه بالجدار، رحت أمسح طبقة الغبار المتكلسة عليها بفعل الزمن، الرباط يخفي وجهي تماماً ولا يترك سوى ثقبين صغيرين يسمحان لي بالرؤية بالكاد. مددت يدي لأحاول فك الرباط دون أن تمس يدي الجرح الذي برأسي، إنه يزداد ألماً كلما أزحت جزءاً

من الرباط. بالفعل يوجد جرح أعلى الجبهة تمت خياطته ووضعت عليه ضمادة، أحسست بذلك عندما مسسته بيدي.

نظرت إلى الوجه الذي يطالعي في المرآة، أحاول أن أتذكر، نعم أعرف هذا الوجه جيداً، لكنني لا أذكر الاسم. توجد بعض التغييرات الجوهريّة، أعتقد أنه كان هناك شارب خفيف واختفى، وكذلك اللحية المتصلة بين الفوَدَيْنِ، والشعر الغزير. مع الأسف الذاكرة لا تسعفني. أنتبه إلى رنين خفيف وصوت أنثوي ناعم يحدثني من خلال سماعة خفية في أذني، بصوت أشبه بالرسائل الإلكترونية:

- مرحباً بك دكتور «ناجي خلوصي».

بدا الاسم غريباً على أذني، رحت أقول لأتأكد من صحة الاسم:

- ماذا؟

صاحت في شبه تصميم:

- دكتور «ناجي مختار خلوصي». حاصل على الدكتوراه من جامعة بنسلفانيا. خلف المرآة التي أمامك يوجد مظروف فيه هويتك وشهادات التخرج والخبرة الخاصة بك.

كانت تتحدث ويدي تنفذ ما تقوله طواعية، بالفعل هناك مظروف متوسط خلف المرآة على واجهته طبع نفس الشكل الهندسي، الفرجار المتعامد على المسطرة القائمة والعين الواحدة في منتصفه، فتحت الظرف فيه كل الأوراق التي أشارت إليها. رحت أقاطعها سائلاً إياها:

- هل من الممكن أن أعرف مع من أتحدث؟

- تستطيع أن تتاديني رولا .
- من فضلك رولا أخبريني كيف أسمعك وتسمعيني؟ دون هاتف  
نقال أو وسيلة اتصال؟
- عن طريق شريحة دقيقة وضعناها في رأسك .
- ماذا؟ شريحة وضعتوها في رأسي؟ من أنتم؟
- دع كل هذا الآن ستعرف كل شيء في حينه .
- قولي لي رولا . ما سبب وجودي في هذا المكان؟ هل وقع لي  
حادث؟
- أجل . تسريب فيروسي .
- أنا . هل أصابني تسريب فيروسي؟
- بل أنت من تسببت فيه . قضى على الآلاف من البشر، وتم  
اعتقالك، لكننا تمكنا من تهريبك قبل جلسة النطق بالحكم . فالإعدام  
في انتظارك لا محالة .
- قاطعتها :
- من فضلك رولا . هل فقدت ذاكرتي تماما؟ هناك أشياء أتذكرها  
جيداً وهناك أشياء كثيرة سقطت من الذاكرة .
- صاحت بحدة :
- لا تحمل هما . إنها حالة مؤقتة، وسوف تستعيد كل ذاكرتك  
شيئاً فشيئاً . أريدك أن تطمئن تماماً . زوجتك وابنتك سيلا بخير .
- هل أنا متزوج ولي ابنة كذلك؟

- أرجوك كف عن الأسئلة الآن. حاول أن تستريح. وبعد ذلك سيكون لك الاختيار في أن تبقى معنا أو تتصرف. إلى اللقاء.

توقف الصوت، أبقى وحيدا في المستودع، أتأمل ما حولي بيأس. أحاول استدعاء الذاكرة من خلف سحب النسيان، أتذكر أشياء بعيدة. لكن الأشياء القريبة محيت تماما. بينما ظلت كلمة «الاختيار» التي نطقت بها تدوي في رأسي حتى صارت طنيناً مزعجاً.

(٢)

## الاختيار

منذ متى كان لي الحق في الاختيار؟ فملايسي لا أختارها، أصدقائي يفرضون علي فرضاً، حتى أوقات فراغي لا يتسنى لي شغلها من تلقاء نفسي. أنا كائن هبط إلى الدنيا منزوع الإرادة، أو بالأحرى تتسلط عليه إرادة أخرى هي التي تفرض اختيارها، وليس أمامه سوى الامتثال لها. إنها إرادة السيد المستشار «مختار خلوصي» رئيس المحكمة الدستورية العليا. والدي.

فهو أب ككل الآباء، يتمنى لأبنائه أن يكونوا أفضل منه، أستطيع أن أجزم بأنه لم يصفعني مرة واحدة، لم يصرخ في وجهي أو يسبني أو يعنفني، لم أر غضبه، مثلما لم أشاهد عطفه، بل تكفي نظرة عينه الصارمة، وإشارة سبابته الحادة لكي تفرض سطوتها على الجميع، أنا وأمي وأصدقائي والجيران، حتى الناس في الطرقات يتحاشونه قدر الإمكان.

الآن. عرفتم لم التحقت بكلية الحقوق مع عشقي للرياضيات والفيزياء والعلوم والطب، ومقتي الرهيب للقوانين وموادها. لكن هكذا أراد أبي، ولم أشأ أن أجادله، فمن يجادل واضع القوانين والديساتير والمحافظ عليها؛ حفاظه على حياته. كنت أخشاه بلا سبب، فلا أدري ما وراء هذه الصرامة من قسوة لا أعرفها ولم أرها،

لو انفجرت لبطشت، كخشيتي من الله وأنا لم أر عقابه . وبمرور الأيام تكونت في ذهني صورة لله تماثل صورة أبي، فخشيت الله وخشيته . كنت أتعجب لتلك العلاقة الغريبة التي بين أبي وأمي، فلم أرهما قط مجتمعين كأبي زوجين يتضحكان أو يتداعبان، بل ما كنت ألاحظه بينهما، إما أوامر منه أو أسئلة منها بإعداد الطعام أو تجهيز الحقيبة حينما يكون مسافراً أو منشغلاً؛ وهو كان كذلك دائماً مشغولاً ومسافراً؛ حتى وهو معنا . يستيقظ في الفجر ليعد قضاياه، يتناول الإفطار واقفاً، ويذهب إلى المحكمة، ثم يعود في المساء ليتناول عشاءً في عجلة ويأوي إلى فراشه .

عندما كبرت اكتشفت بالصدفة أنهما منفصلان، لكنه حملها على الإقامة معنا في المنزل من أجل رعايتي، والأهم من ذلك؛ الحفاظ على النسق الاجتماعي الذي يحرص عليه حرصه على القوانين، فتحولت من زوجة إلى سجين . كنت أنظر إليها مشفقاً، أشعر كأن بداخلها مارداً ثائراً يريد أن يخرج منفجراً، لكنها اعتادت أن تروضه باستكانتها، وتهدئ من روعه باستسلامها، لكي تسير الحياة، فهي تعلم مقدماً نتيجة خروج هذا المارد اللابد في قمقمها، وتخشى من تداعيات ذلك .

ظللت زمناً طويلاً معتقداً أن أمي لا تأكل مثلنا، فنادراً ما أرى فيها يتحرك سواء بالمضغ أو الكلام، وظننت حينها أن أبي جاء بها فقط لتدبير الطعام والشراب لنا، والاهتمام بشؤوني كمرية شرعية، فكنت أنظر لها نظرة تقديس وإجلال كإلهة طيبة تمنح الخير والنماء

والحنان، فأصبح لدي إلهان، أحدهما قاس صارم متوعد، والآخر طيب القلب حنون.

منذ ذلك الحين نما داخلي الشعور بالشك، الشك في كل شيء، فخرجت إلى الحياة منطويا عزوفا عن الناس. وكنت أجد ضالتي في أمي، كثيرا ما كنت أجلس بالساعات معها، نقطع الوقت في أحاديث كثيرة، فقد أحتمل الحياة بدون أصدقاء، لكنني لا يمكن أن أحتملها صامتا، لا أتحدث إلى مخلوق، وأجمل ما يكون هذا المخلوق «أمي»، بوجهها العاجي الجميل، وعينيها الحوراوين، وشعرها الأسود الفاحم الذي ينسدل خلفها في نعومة، فهي كإلهة لا تكبر ولا تشيخ، هكذا وجدت في أمي العوض عن صرامة أبي وقلة الأصدقاء. تضمني أمي وهي تقول:

- غداً تتزوج وتكون لك حياة.

ألتصق بها لاثداً:

- لا أريد أن أتزوج وأبتعد عنك، سأظل بجانبك.

- لماذا؟ ألا تشناق أن يكون لك ولد من صلبك تعلمه كل شيء،

ليصل إلى أعلى المراكز؟

أعجبتني الفكرة وراحت تفاصيلها ترسم أمام عيني، فشردت بعيداً:

- لا يهمني أن يكون لي ابن واسع الخبرة بالحياة، محققاً أعلى

المراكز، الأهم أن أكون أباً حانياً ودوداً لهذا الابن، أجل يا أمي، لو جاء

هذا الابن سأجعله فناناً، رساماً، نحاساً، موسيقياً، عالماً، لكنني لن

أجعله محامياً أو قاضياً على الإطلاق.

ضحكت وهي تداعب خصلات شعري:

- على أية حال هو ابنك، اجعله كما تشاء.

أزعجتني جملتها:

- أمي. لماذا يخرج الأبناء كما يريد أبائهم؟ أليس من حقهم أن يكونوا كما يريدون هم أنفسهم؟

بدت في عينيها نظرة غائمة، وأدركت ما وراء سؤالي وعقبت:

- وهل تعتقد أن طفلاً صغيراً ليست لديه خبرة بالحياة يدرك شؤون نفسه؟ الآباء يعرفون مصلحة أبنائهم أكثر من أنفسهم، وثق أن أباك هو الشخص الوحيد الذي يتمنى أن يراك أفضل منه.

حصلت على الثانوية العامة، وأسرتت إلى أمي برغبتني في دخول كلية العلوم، فمجموعي يسمح بدخولها، قالت لي:

- إعرض الأمر على والدك.

وكأنها اختارت الطريق الأصعب. مرت قرابة نصف الساعة؛ وأنا جالس في مكتبه حتى يفرغ من الكتاب الضخم الذي ينتقل بين صفحاته بعينين رتيبيتين، ووجه جامد كالصخر، يتألق بلونه النحاسي القاسي، فيخيف ولا يطمئن، وشفيتين مطبقتين بدوتا كمزلاج سرداب غامض يخفي سر الأسرار، كل حين يعدل من وضع قدميه الطويلتين، وجسده الضخم، فبدا كمارد عملاق لا يشعر بما حوله، حتى ضقت ذرعاً، فأصدرت سعالاً خفيفاً لأنبهه بأنني موجود، بعد أن أخبرته أمي أنني أريد أن أعرض عليه أمراً مهماً، فسألني دون أن ينظر لي:

- ما الأمر المهم الذي تريد أن تحدثني فيه؟

تاه السؤال الذي ظلتت أحفظ فيه طوال الليل وأخيراً تشجعت:

- أرجو أن تسمح لي يا أبي بدخول كلية العلوم، فلي زميل سبقني إلى كلية الحقوق يؤكد أن الدراسة فيها صعبة للغاية، وقد رسب عامين متتاليين حتى إنه أصبح مهدداً بترك الكلية والبحث عن أحد المعاهد الفنية لبدأ فيها من جديد.

نظر لي بطرف عينه وهو يقول محافظاً على سمته الهادئ المخيف:

- من العيب على ابن رئيس المحكمة الدستورية العليا أن ينصت لحديث تلميذ خائب، عندما اخترت لك الحقوق لم أفكر حينئذٍ في الرسوب أو النجاح، وإنما من أجل أن تكون قاضياً.  
- معذرة يا أبي.

نهضت نادماً أنني عرضت عليه الأمر، وقبل أن أغادر مكتبه نادى قائلاً:

- ناجي. القضاة هم من يحكمون العالم.

- شكراً يا أبي.

قلتها وأنا أخفي عينا مدمعة خشيت أن يراها فيصب علي غضباً لا أعرف مداه، وعندما تركت مكتبه وجدت أمي واقفة بالخارج، ربت علي مواسية، لكنني كنت قد أقنعت نفسي بأن دراسة الحقوق هي أفضل اختيار بالنسبة إليّ، حتى ولو لم يكن بإرادتي.

عندما دخلت غرفتي سمعت هسيساً مبهماً أتياً من حجرة مكتب أبي، أصغت السمع، كانت مشادة بين أمي وأبي، لأول مرة أسمع حواراً

بينهما، وأشفتت على أمي من سخطه وطغيانه، واستطعت أن أتبين  
فحوى الحوار:

- لماذا تعامله بهذه القسوة؟

- أنا أدري منك بمستقبله.

- أي مستقبل تريده لابنك وهو فاقد الحنان مسلوب الإرادة.

- يكفيه الحنان الذي يتلقاه منك، سيشكل منه عجيباً رخواً، وليس  
رجلاً صلباً يتحمل مسؤولية بلد بأكملها.

- كانت أمامك فرصة للاقتراب منه واحتوائه أضعتها بغطرستك  
وصلفك.

- لم يعد لدي وقت لإضاعته في الحوار معك.

قال جملته الأخيرة بحدة، وسمعت أقدام أمي وهي تترك حجرة  
مكتبه وتوصد بابها، ومضت إلى حجرتها وهي تكافح موجة من البكاء  
حاولت كبجها رفقا بي، لكنني سمعتها وشاركتها البكاء.



(٣)

## «داليا سعفان»

كلية الحقوق، أشعر وكأنني في مطعم؛ أَلف رواده الطعام، فصاروا يتناولونه بشهية مفتوحة، بينما بدا في فمي علقما، لا أستطيع ازدراده أو بلعه، يرددون أنواعه وأصنافه ومواده، وكأنهم ولدوا من بطون أمهاتهم محامين وقضاة، وأنا أتعثر في نطق أسماء رجاله، فإيثارا للسلامة كنت أتحاشى الكلام، في أثناء المحاضرة، الجميع منتبهون صامتون، كأن على رؤوسهم الطير، وأنا الطائر الوحيد الذي يحلق في فراغ وهمي دون أن يقر له قرار، ولا يجد رأساً يهبط عليه، فإما مخدر نائم؛ يعذبه الاستيقاظ، أو يقظ ضجر؛ يبحث عن وسيلة يتلهى بها حتى تنتهي المحاضرة.

لذلك كنت أنتحي ركنا في آخر القاعة بعيدا عن مرمى بصر المحاضر، وأنهمك في رسم الوجوه المنصتة أو رسم المحاضر نفسه، وحسبي أنني اكتسبت مهارة جديدة. لكنني لم أكن أظن أن رسمي لوجه «داليا سعفان»؛ سيحدث هذا الأثر، جذبني وجهها الصنوبري الرقيق وجبهتها العاجية، وعيناها الدعجاوان، وهما يسبحان في فراغ القاعة تبحث عن شيء تلتقطه، فالتقت عيناها بعيني المتفرستين، وبهرني لونهما السنجايان، وراحت كل عين ترنو إلى وجه الآخر مستكشفة، فاتسع بنا المكان ليصبح كونا فريدا، وما نحن سوى نجمين يتبادلان مدارا واحدا في فضاء شاسع.

لم أدرك أن المحاضرة قد انتهت، إلا عندما وجدتها تتحرك بتؤدة خارجة من القاعة، فوجدتها فرصة ولحقت بها معذراً:

- أرجو أن تقبلي اعتذاري. وتقبلي مني هذه اللوحة؟

صاحت باندهاش مصطنع:

- أكنت ترسمني؟

- إنها هوايتي المفضلة، أعجبني وجهك فرسمته.

تناولت الصورة وهي تقول بركة:

- ميرسي.

ثم انصرفت دون أن تلوي على شيء، بينما أخذت ألاحقها وهي تبتعد حتى اختفت، وقد شملني شعور غريب جديد، لم ينتابني من قبل، ولا أعرف كنهه، فما سر هذه الدفقة التي تقفز في صدري، وما هذا الخفقان الذي ينفض بقلبي، وما الدفء الغريب الذي يسري في أوصالي؟ فكأن ميلاداً جديداً يسطر تاريخه بكيانني، بدون أوامر أو اختيار جبري.

شغلنتني صاحبة الصورة طيلة اليوم، وراح وجهها الدرّي، يفرض نفسه على عقلي في طغيان آثم، رغماً عن تسلط وجبروت السيد المستشار مختار خلوصي.

في اليوم التالي؛ فوجئتُ بها تتخذ مكانها بجانبني، وشعرت بموجة دافئة تحييط بي، ولأول مرة؛ يصبح مدرج حقوق السمج الممل الموحى بالتأؤب والنوم والخمول، مفعم بالتوهج والإشراق والحياة. رحنا نتحدث في موضوعات كثيرة، واكتشفت أنها مثلي غير معنية بدراسة

الحقوق، الكلام الذي تسمعه من المحاضر؛ أجوف صدئ أشبه بالطلاسم، ومواد القانون؛ لوغاريتمات كسحابات غائمة تخفي أسراراً غامضة، وصرحت لي أنها تعيد السنة في ست مواد . فقلت لها :

- ربنا يطمنئك .

ونقلتنا أقدامنا من مدرج حقوق بضيقه وكآبته وطلاسمه، إلى فضاء الجامعة باتساعه وبهجته وبحبوحته. ودلق كل منا للآخر بعذاباته وشقاواته، فحدثتها عن صرامة والدي الذي لا يبتسم إلا نادراً، إذا كان يتحدث مع أحد زملائه في الهاتف، وابتسامته أشبه بالمذنب المارق، ما تكاد تظهر في سماء وجهه، حتى تخبو سريعاً .

انفجرت ضاحكة لهذا التشبيه، وعقبت قائلة:

- أنا وبابي أصدقاء، لا نجتمع إلا وتحيطنا موجات من الضحك والهزار لا تنتهي حتى نفترق، محاسب خفيف الظل، إذا تحدث يحيطك بشبكة من الأرقام تسلب روحك. المشكلة في زبيدة.

- ومن زبيدة؟

- ماما . مديرة مدرسة قاسية جداً، صبغتها المهنة برنة تسلط وحدة، تريد كل شيء صحيحاً ومنضبطاً ومنظماً، وأنا لا أستطيع أن أصمد كثيراً أمام النظام، فقد من الفوضى يمنحك بعض الحياة .

ضحكنا كثيراً حتى وجدنا أنفسنا أمام كلية العلوم، وبالتحديد قسم الوراثة، ووقفت أنظر في تبتل وتقديس لصورة للعالم النمساوي مندل مؤسس علم الوراثة. اقتربت مني وهي تتساءل في دهشة:

- أراك تشبه على الأخ، أياكون من العائلة؟

- ألا تعرفينه، إنه مندل مؤسس علم الوراثة؟

ضحكت بعفوية:

- لم يحصل لي الشرف بلقائه من قبل، لكن لا بأس من التعارف.

صحت بانفعال العاشق الذي ظل يحلم بالحبيبة الغائبة، فإذا بها

تتمثل أمام عينيه:

- أنت لا تعرفين ما بيني وبين هذا القسم منذ نعومة أظافري.

طيلة عمري ولي رغبة وحيدة أن أدخل كلية العلوم قسم الوراثة،  
ولكن...

قاطعتني:

- أكيد مجموع الدرجات.

قلت بثقة:

- ستتعجبين لو علمت أن درجاتي تتجاوزها.

صاحت بمرح:

- يا خيبتك، ما الذي حملك على دخول حقوق برجليك؟

- من حسن حظي أن حدث هذا حتى نلتقي.

سرتها جملتي، فراحت تقول:

- مادامت هذه رغبتك، سأحققها لك اليوم فقط استثناء. هيا

بنا. أدخل بقدمك اليمين.

وكان مارداً جاء من بين الأساطير، ليفتح لي جداراً زمنياً مستحيلاً،

وينطلق بي داخل مدينة أسطورية. دلفنا من الباب تسبقني قدمي،

بينما هي خلفي تحاول اللحاق بي، وتسمرت أمام معمل البيولوجي، مصدر وحيي والهامي، حلم يقظتي ومنامي، فهنا يتجلي مندل وجالتون برؤاهما وأفكارهما التي كثيراً ما قرأتها حتى حفظتها عن ظهر قلب.

نبهتني:

- أستاذ. لدينا محاضرة قانون عام بعد قليل.

لكن المارد ما زال يدفعني رغما عني لمواصلة التقدم، فرحت

أستجيب له وأنا أقول في إصرار:

- سأبلي رغبة قديمة تلح علي منذ صغري، فأرجوك لا تقضي في

طريقي.

صاحت:

- والمحاضرة؟

- احضريها نيابة عني.

هزت كتفيها، ومضت مسرعة عائدة إلى كلية الحقوق، بينما

واصلت تقديمي مبهوراً بكل شيء، من رسم توضيحي لخلية حية،

أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، للوحة حائط تظهر شريطاً وراثياً،

أعرف مكوناته وقواعده.

سامحك الله يا من أشرت علي بدخول الحقوق، وقلبي وعقلي

معلقان بالوراثة. حتى دفعنتني قدمي داخل مدرج بيولوجي، وكأنهما

اخترتا طريقهما على هدى، ولحسن الحظ كان مدرج السنة الأولى،

ولأننا كنا في بداية العام الدراسي، فلم يكن وجودي غريباً بينهم، فما

زلنا نتعرف بعضنا بعضاً.

- أهذه أول محاضرة لك في القسم؟

سألتني زميلتي الجالسة بجانبني في آخر المدرج، فهززت رأسي دون أن أurd، فقد اخترت مكاناً بعيداً عن الأعين، مثلما اخترت مكاني في الحقوق، لكن الفارق بين المكانين أن اختبائي في الأول حتى لا يكتشف أحد غيابي وانصراف ذهني، وفي الثاني حتى لا يكتشف أحد حضوري غير القانوني.

صاحت زميلتي الجديدة:

- فانتى أسبوع من المحاضرات لم أدركها، يجب أن نبحت عن زميل يعيرنا كشكوله.

قلت دون أن أنظر إليها:

- أنا لا أعرف أحداً هنا.

- وأنا مثلك، كنت مسافرة مع أسرتي بدولة الإمارات، على أي حال؛ من يتحصل منا على كشكول محاضرات؛ ينسخ نسخة إضافية للآخر.

- اتفقنا .

لم تكن في جمال داليا، لكن فيها جاذبية وتوهج، أو ربما أحسست بذلك، لأنها كانت المرة الأولى التي أتعامل فيها مع الجنس الآخر. ثم عرفتني بنفسها:

- «نيللي فؤاد».

- «ناجي خلوصي».

وانتبهنا على دخول المحاضر، وطلب منا كتابة أسمائنا في ورقة الحضور التي ستمر علينا، وعندما جاءت الورقة عندي توقفت متردداً. هل أكتب اسمي أم لا؟ لو كتبت اسمي سيكتشفون أنني حاضر معهم، بدون أن يكون لي ملف في كلية العلوم، فملفي قابع في كلية الحقوق بلا صاحب. فناولت الورقة إلى نيللي دون أن أكتب اسمي، ورضيت بأن أكون الحاضر الغائب، قانعاً بأنني سأدرس موضوعاً أعشقه وأعرف تفاصيله.

ومنذ اللحظة الأولى لي في قسم الوراثة، شعرت كأن سيالاً من أشعة نورانية تنفذ من بين مسام جمجمتي وتنساب داخل عقلي لتدير تروساً صدأتها القوانين، وتربستها نصوص المواد الصماء، فلم أحفظ منها مادة واحدة، بينما في دقائق قليلة حفظت قوانين الوراثة عن ظهر قلب، وبدت لي الخلية على دقتها وصغرها المتناهي، أكثر اتساعاً.

لكن الأهم من كل هذا أنني نلت شرفاً عزيزاً لم يتسن لي الحصول عليه من قبل، ألا وهو الاختيار.

(٤)

## أورورا بار

غير أن صداقتي لـ«شادي أمين» ابن المستشار أمين عبد الباقي؛ صديق والدي؛ والمفروض علي كانت بمنزلة كارثة طبيعية.

تعرفت عليه عندما جاء بصحبة والده في زيارة لوالدي، بعد قبوله بكلية الحقوق؛ أي سيكون زميلاً لي، وراح المستشار أمين يشكو من انطواء ابنه شادي وانعزاله وعزوفه عن الأصدقاء، فأصدر والدي أوامره بأن أكون مسؤولاً عن شادي، «ودردحته» على حد قوله.

ما إن اختلينا؛ حتى تحول الفتى الخجول المحمر الوجه كالبكر الحية، إلى شيطان في ثوب آدمي، سرعان ما أخرج من مخابئه السحرية علبة سجائره، وراح يدس في إحداها قطعة من الأفيون، وينفث دخانها المعتق في فراغ غرفتي فيحتويني خدرها. صرخت في وجهه:

- ألا تخشى والدك؟

ضحك مستهزئاً:

- والدي لا يهमे سوى التلبس وأدوات الجريمة، وأنا هنا في غرفتك لست متلبساً، ولا علاقة لي بأدوات الجريمة، فلا الغرفة غرفتي، ولا السجائر سجائري.

- يا لك من ملعون، ويطلبون مني دردحتك؟

أصدر شخيراً بذيئاً وهو يعقب:

- مغفلون هؤلاء الآباء الذين يطلبون من أبنائهم أن يكونوا ملائكة، وهم نفر من الشياطين. فما أبشع أن ترى بعينيك وقار أبيك وهو يتداعى في أحضان خادمة قذرة، فتكون سيدته وهو عبدها المطيع. سرعان ما كرهت شادي وضجرت منه، ولم أطق صداقته، كيف سأقضي أربع سنوات زميلاً لهذا الوباء الآدمي؟ لكنه صار في رقبتي كالطوق الصدئ، فلا أستطيع الخلاص من أسره، وإذا نجوت منه ترك أثراً مقيتاً حول عنقي.

منذ ذلك اليوم صار شادي ملازماً لي، وكأنه وجد ضالته التي يبحث عنها منذ سنين، فقد اعتاد زيارتي بمناسبة ودون مناسبة، ولكونه أخذ تصريحاً مفتوحاً بالزيارة، فأصبح بيتنا ملاذاً له، وحجرتي حرماً مباحاً، يزورني في أي وقت، حتى ولو كنت نائماً يدخل ويوقظني بردالته، ويستعمل معي كل الوسائل من رشي بالماء أو وضع قراطيس ورقية في أصابع قدمي وإشعالها، أو ممارسة قوته فيلقي بجسده السمين علي، ولا يتورع أن يعبث بمناطق حساسة من جسدي، وكان غضبي وانفعالي مثار ضحكه وسعاده.



هكذا أصبحت بين عشية وضحاها طالباً منتظماً بالسنة الأولى بقسم بيولوجي بكلية العلوم، واسمي مقيد بكلية الحقوق، لم يكن

يعينيني كشوف الحضور ونسب الغياب، وحضور الاختبارات، والنجاح والرسوب، بقدر تحقيق رغبتى الأزلية في دراسة ما أحبه، وما يستقيم مع ميولي، فقد منحنتي هذه الخطوة حالة لم أشعر بها طوال حياتي، وهي الاهتمام، عكس ما كنت أشعر به سابقاً من لا مبالاة، وبماذا أبالي؟ وهناك من يفكر عني ويحدد طريقي ومستقبلي.

ولنبوغي وقراءاتي السابقة المتعمقة في البيولوجي، صرت معروفاً لكل أساتذة القسم، وبدلاً من جلوسي في آخر القاعة منزوياً، وجدت نفسي مدفوعاً إلى أول الصف. مشاركاً في المناقشات، سباقاً إلى الإجابة، ما جعل الدكتور «فضالي علم الدين» يثني علي ويصيح بإعجاب:

- برافو يا بني، زميلكم هذا سيكون له مستقبل كبير في البيولوجي.  
راحت «نيللي فؤاد» تلاحقني في كل مكان، فهي من نوعية الطلاب «الدحيحة»، الذين يبذلون قصارى جهدهم، ليحصلوا على أعلى تقدير، لكي تتعين معيدة في الكلية، لذلك جاءت بجانبني في الصف الأول، بل ومنحنتي نسخة من كشكول محاضرات زميل معنا «دحیح» مثلها.  
لم أشأ أن أحدث أحداً بسري سواء في الحقوق أو في البيولوجي، وإلا طردت من الكليتين، فلا نلت عنب الحقوق، ولا أدركت بلح العلوم، الوحيدة التي تعرف السر «داليا سعفان»، فهي كانت عيني وأذني ولساني في كلية الحقوق، فأنا حاضر بحضورها، كما أنها بدأت تداوم على حضور المحاضرات وتدوينها، لتعطيني نسخة، بالرغم أنني لم أطلب منها ذلك.

ولم أكدُ أستطيعُ التخلص من أسر «شادي أمين»، الذي كان ملازماً لي كظلي، وكأنه صار حارساً قضائياً، أو رقيباً على متهم أنهى لتوه فترة العقوبة، ما إن يراني في مدرج الحقوق كإجراء روتيني أفعله كل يوم قبل الذهاب إلى قسم بيولوجي خفية، حتى يلاحقني بأسئلته الفضولية:

- أين تذهب يا أخانا . ما تلبث أن تحضر في بداية اليوم حتى تتبخر كالأثير، بحثت عنك كثيراً بالأمس، ودكتور قانون الشركات سأل عنك أكثر من مرة. تراك وجدت عملاً إضافياً يدر عليك خيراً وفيراً، من أعطاك يعطينا .

فكنت أغير مجرى الحديث، بالمزاح تارة، وبالحدة تارة، وبمصاحبته تارة ثالثة حتى تمر الأيام بلا مشاكل، لكن مصاحبته كانت المشكلة الكبرى. حتى وجدته ذات يوم يهمس في أذني:

- دع نفسك لي اليوم. سأعزمك على سهرة ستغير حياتك ولن تنساها ما حييت.

بالرغم من مقتي لشادي وعدم ارتياحي له وتجنبي له طول الوقت، فإنني كنت بحاجة إلى شيطان يقودني إلى الضلال، ويعرفني دهاليزه وخباياه، ويأخذني إلى عوالم غريبة، لم ترها عيناى من قبل، فقد مللت المألوف والمعتاد، وصرت بحاجة إلى الخوارق. وكانت أول القصيدة كفراً «أورورا بار»؛ ملهى ليلي متطرف قابع في أطراف المدينة، راح شادي يقود سيارة والده، وهو يتحدث في موضوعات شتى، بصوت عال وبسرعة كبيرة، لا أتذكر منها شيئاً، لكنني أعتقد

أنه كان يتحدث عن الحرية، والمتعة التي تمنح لمن ينالها قسراً، فذكرني بمندوبي شركات التأمين الذين يبيعون كلاماً عن الحياة، دون أن يمتلكوا صك تحقيقه.

لا أدري كيف وصلنا، وكأنه اتخذ مساراً زمنياً كونياً، انجذبنا نحوه بسر جاذبيته العجيبة، فهو في الحقيقة أشبه بالأورورا، بدا كألوان الطيف في الليالي الملبدة، واستقبلتنا الموسيقا الصاخبة وهي تدوي بحماس، وفتح لنا الرجل الواقف بالباب مرحباً:

- أهلاً شادي بك، المكان منور بك وبأحبائك.

دلفنا لتبتلعنا دنيا بدت لي كالحلم، واحتوتنا غيوم «أورورا» الملونة ورائحة الخمور والدخان المعتق، وأطياف الراقصات وهن يهزرن أردافاً ونهوداً تحررت من قيودها، بينما عيناى تتجولان دون أن يمنعهما مانع، ولا موانع السيد المستشار؛ التي صبها في عقلي وفؤادي منذ ولدت، وكبرت معي لتتحول من موانع إلى سياج وقضبان. وكانت سعادتى بارتكاب معصية أكبر كثيراً من استمتاعي بالمشاهدة.

انتبهت على صوت ناعم رقيق يهمس بجانبى في إغراء:

- نورت يا باشا.

التفت إليها ليطلعني نهدان نافران برزا من قمقم فستانها المخنوق، الذي يكشف عوالم لم أرتدها من قبل، وتكونت لدي فوبيا من نوع جديد، فوبيا العري والأجسام المكشوفة، فغضضت بصري سريعاً بحركة مفتعلة، فأطلقت ضحكة مثيرة وهي تردد:

- ده بينكسف.

أشار لها شادي بإصبعه:

- زجاجة براندي وحياتك يا لوسي، وزودي المزة، صاحبنا جديد في الكار.

نظرت لي مشفقة وهي تقول:

- يا ننوس، شكله ما عملش الواجب، يكفيه ساندويتش مربى قبل النوم.

ثم ضحكت بخلاعة ومضت، وتكدرت نفسي من سخريتها،

فاقترب مني شادي هامساً:

- لا تكن ثقيلاً وبارداً يا أخانا. تجاوب مع الوضع والإقسماً عظماً

أبلغت سعادة المستشار بوقعتك السوداء هذه، وليكن في معلومك أن المكان مراقب بالكاميرات وكل شيء مسجل بالصوت والصورة. فإذا أردت أن نذيع سنذيع.

لا أستطيع أن أنسى ذلك اليوم، كنت أرى ما يدور حولي بعقل

غائب وعينين نائميتين ونفس مكروش، فمن سيجارة ملغمة بشعرة

أفيون، لكأس خمر مخفف بالصدودا، لامرأة خبيرة مدربة تدفعك إليها

ليس بدافع الرغبة، وإنما تأدية لخدمة مقابل أجر، أملاً أن تصبح

زبونها الدائم.

وكان كل شيء مرتباً ومعداً لهذه الليلة، التي خطط لها شيطان مثل

«شادي أمين»، وبالرغم أنني عارضته وأقسمت أنني سأتركه وأمضي،

حتى لو نفذ تهديده بإخبار والدي، لكنني كنت مدفوعاً بقلب تتسارع

دقاته، وعرق يتصبب من أنحاء جسدي، فما أبشع من عرق الخطيئة،

له رائحة الكحول المعتق ولزوجة الوحل المخمر.

وكان السؤال الذي يسيطر علي طول الوقت. هل أستطيع؟ فما أصعب المعصية الأولى. هي أشبه بتعلم السباحة لأول مرة ودون طوق نجاة. وكانت لوسي هي الدوامة التي جاءت لتسحبني إلى القاع، لم أكن في حال تسمح لي بتبيين درجة جمالها وجاذبيتها، هي أيضا تريد أن تؤدي مهمتها وتتصرف، لتلحق بزبون آخر أكثر مني مالا وحذاقة، وراحت تقول:

- سأمتعك يا باشا. دع نفسك لي ولا تفكر في شيء.

وحدث ما لم يكن في الحسبان، ما إن خلعت بنطالها الضيق لدرجة الانفجار، وفكت حامل الثدي لينطلق أمامي نهدان ممتلئان، حتى عاودتني فوبيا العري من جديد، ولكن هذه المرة بشكل هيس تري، لهاث مستمر، خفقان شديد في القلب، عرق غزير تقصد من كل مسامي، واندفعت الدماء في عروقي دفعة واحدة. ولم أستطع كبح جماحي، لأغرق في طوفان لزج، دفعتها وأنا أسرع بالفرار، بينما تقول:

- انتظر يا باشا.

(٥)

## عوالم خفية

كثيراً ما كانت تأتي «داليا سعفان» بعد انتهاء المحاضرات، لتلتقي بي في قاعات بيولوجي، وبعد ذلك نجوب الشوارع والطرق لتأخذنا عوالم خفية، لم نعد أنفسنا لطرقها أو السير فيها، بل لم نرها، سرنا فيها على غير هدئ، كعميان يقودهم صبي أهوج في طرق وعرة.

- أحبك. أحبك مثلما أحب الخلية وأعشق النواة، بما تحويه من جينات وكروموسومات وصفات وراثية زرعت فينا منذ بدء الخليقة.

أطلقت ضحكة ماجنة في نهايتها آهة مثيرة:

- أخيراً قلتها، يبدو أن دراسة البيولوجي قد فكت عقدة لسانك.

- ليست دراسة البيولوجي في حد ذاتها، وإنما بعضٌ من الحرية

استطعت اقتناصها عنوة.

هزت كتفها اليسرى بتهكم:

- الحرية لا تتجزأ يا حبيبي، فإما أن تحصل عليها كاملة، وإمّا

تقنع بقيدك.

- وما حدود الحرية التي تمنح لك؟

تراقصت ابتسامة على شفتيها وراحت تقول:

- الحرية لا حدود لها، فهي ممتدة كالكون، ولا تمنح؛ بل تقتنص،

فمتى صارت بين يديك؛ أطلق لها العنان دون أن يعوقها أي شيء.

كان وقع كل كلمة من كلماتها كزلزال يترك توابعه داخلي، فرحت أقول كمن يذكر نفسه:

- لكننا نعيش في مجتمع يفرض علينا نظمه وقوانينه.

غاصت بعينيها في عيني، تاركة آخر زلزال قبل أن تتصرف:

- أنت من تحدد النظام وتصنع القانون الذي تفرضه على غيرك.

الضعيف فقط هو من يمتثل للقانون الذي يفرض عليه.

ظلت توابع جملتها تهزني هذا عنيفا، ورحت أسترجع تاريخ حياتي كله في ليلة مضية أقضت مضجعي؛ جافاني فيها النوم وتسلمي السهاد. فلم أجد سوى انكسارات نفسية وصور مشوهة لمراحل حياة لم تأخذ حقها، من طفولة قاسية حفلت بأعين ناهرة، وألسن زاجرة، غاب فيها الطفل بين سطوة من قوانين العيب والحق والواجب، لصبا منطوية جازعة، فاقدة القدرة على التفكير والمغامرة، وبين الطفولة والصبا؛ كان الخوف والحجل، هو القانون الذي يسري على هذا الكائن الضعيف الذي أكنه.

فجأة انتابتني موجة بكاء عنيفة، ولم أكد أستطيع أن أسيطر على نشيجه، وتركت دموعي تمطر على وسادتي. وقبل شروق الشمس كنت إنساناً جديداً.

وتتابعت لقاءاتنا أنا و«داليا سعفان»، كنت مأخوذاً بحديثها عن الحرية، والتفكير خارج الصندوق، وكسر جميع التابوهات، حتى نظرتها للعقاب، كانت نظرة مبتكرة وجديدة، فلا يوجد عقاب أشد من الموت، والموت قادم لا محالة، ومن ثم لا جدوى من التفكير في

العقاب. ووجدت في صحبتها بعثاً جديداً، وبعد أن كانت تأتيني إلى قسم البيولوجي، رحت أبحث عنها، وفي كل لقاء بيننا نزداد توهجا، فضول من ناحيتي، وتشجيع من ناحيتها. وكانت داليا تسهل اللقاء وتهيئه لي.

وحقيقة الأمر أني كنت أريد أن أقتص لفشلي مع لوسي بالظفر بداليا. فقد أدركت داليا سريعاً نقطة ضعفي، وفويبا الأجسام المنكشفة، فأخفت جسدها تماماً عن عيني، وراحت تلهو كطفلة وجدت دمية، فصرت لعبتها الأسيرة. فالعلاقة بين رجل جائع وامرأة لعوب ينبغي أن تكون فوق رقعة شطرنج، وليس بين زهري نرد.

بدأ الأمر بيننا كطفلين يلعبان، ثم الحديث عن زملاء الجامعة ولا سيما «شادي أمين»، إلى والدينا وتحكماتهما، ولا أدري لماذا افتعلت موجة حزن مفاجئة، فرحت أواسيها وأهدئ من روعها، وبدأ كل منا يقترب من الآخر، رقصنا، وتلامسنا، وتعانقنا، ووجدت نفسي أطبق بشفتي على شفيتها لنغيب في قبلة عميقة لم نجد لها فكاكاً، ووجدت يدي تبحث عما شاهده في جسد لوسي ولم أستطع الظفر به.

عالم كنت أجهله، لا أعرف تفاصيله وخبائاه، يفتح أمامي على مصراعيه، ويحثني على التقدم واكتشافه وسبر أغواره. من قال إن أجساد النساء واحدة، بل لكل جسد مذاقه ودفؤه ولغته التي على الرجل أن يجيد حروفها جيداً، ربما لم يكن نهذاها منتفخين كنهدي لوسي، ولا يرتجان كالبالون، لكنهما كانا أسيلين، دافئين، يرتعشان لأقل حركة، وجسدها النحيف في رقعة أكثر أنوثة من جسد لوسي الضخم النافر.

وفي لحظة؛ تحولتُ إلى مذنب ينطلق في فضاء كوني رحب مثير،  
 فإذا بي أقع في أسر ثقب أسود، تحت تأثير ساحرة تفتح له كل  
 المغاليق، تنثر حولي نجومًا مضيئةً وتقيم كواكب مندثرة وشموساً  
 منقرضة، فتأسرني بجاذبيتها الرهيبة، لأدور في أفلاكها مخدراً.

وكلما غفوت في خدرها، أيقظني وجه المستشار الصارم، وعيناه  
 الواسعتان الحادثان، فأتراجع جازعاً منكسراً، لكن غريمتي كانت له  
 بالمرصاد، فتأتي برعدة طاغية تزلزل كياني، وتسقط معها حزمة  
 من القوانين والأعراف، أو تطلق آهة بركانية مثيرة، لتتطلق حممها  
 الملتهبة في جسدي فأغفو من جديد. ضارباً عرض الحائط بكل  
 الدساتير. وكأنني متهم خلف قضبان الرغبة، ينتظر بلهفة صدور  
 حكم سيحدد مصيره.

وما بين الغفو واليقظة تسقط أقنعة وتتراخي أستار، لتتكشف  
 عوالم جديدة، وبدت أمامي الفتاة الصغيرة البريئة امرأة مدربة خبيرة،  
 تعرف جيداً كيف تدير المعارك، حتى صارت أفكها من «لوسي»، التي  
 خرجتُ من معركتها خاسراً، لكن يبدو أنني قد عوضت خسارتي.  
 فبعد أن انتهينا استلقى كل منا على الفراش غارقاً في دوامة من  
 العرق، بينما تهمس في تهيدة شبيقة:

- أنت شيطان.

- وأنت ساحرة.

- لم يكن يبدو عليك.

- كأنني أعرفك اليوم فقط.

- ماذا تقول عني؟

- أكثر من رائعة.

قلتها وأنا أقبلها، بينما في نفسي كنت أحتقرها، فهي الأولى بالنسبة إليّ، ولم أكن الأول بالنسبة إليها.

فجأة شعرت بنفورٍ وضيقٍ في صدري، وتهدج في أنفاسي، وكأنّ روحي ستخرج من جسدي. أسرعت بارتداء ملابسني، فوجدتها تمسك بي، وهي تقول في إثارة:

- لم العجلة؟

- لقد تأخرت.

- ما زال أمامنا وقت، فالشقة لنا حتى الصباح، وأبي مسافر ولن

يعود قبل الغد. وأخبرت أمي أنني سأبيت عند صديقة لي.

تمنيت لحظتيّ أن أضعها وأجرها من شعرها وأخنقها، لكنني واصلت ارتداء ملابسني دون أن أرد، وتركت البيت ناقماً على كل شيء.

(٦)

## شيطان في قاعة المحكمة

بقدر ما تركته هذه المغامرة في نفسي من متعة، راحت تتجدد كل حين كلما اجتررت حوادثها، سواء باستعادة الخيال أم تكراره، بقدر ما أصابتي بخيبة أمل وانكسار. شيئاً فشيئاً؛ هجرني اللوم وتأنيب النفس، فكنت أفعل الخطايا بقلب ثابت وضمير ميت، متلذذاً بما هو غرائبي وخرافي، أمل تكرر الحكايات والحركات المعتادة والآهات المصطنعة، أبحث عن كل ما هو جديد وفريد، وكانت داليا حاذقة للدرجة التي جعلتني مشدوداً إليها، فكلما اعتدتها ومللتها أتتني بحكاية جديدة تلهبني. وبالرغم من ذلك مللتها وضجرت منها، ولكن ما السبيل إلى غيرها، ولا سيما أن طلباً كهذا يحتاج إلى أسلوب ومهارة لا أجيدها، وعاودني مشهد بنطال لوسي الضيق ونهديها المرتجين، فخطر بذهني أن أعيد الكرة وأصلح الخطأ. لا يوجد غير «شادي أمين».

رحت أبحث عنه كمن يبحث عن حارس المعبد، الذي يملك صكوك الغفران ويحمل مفاتيح الفردوس، فهو من يهديك إلى الضلال ويباركه، بل يمنحك الإذن بممارسته. أخيراً وجدته يجلس في قاعة المحاضرات، منهمكاً في نقل بعض الصفحات من كشكول زميل قبل أن تبدأ المحاضرة التالية. جلست بجانبه فلم يحفل بي، فهذه هي

عادة الشياطين تتقرب منك وتلح عليك وتحتويك، حتى إذا لبيت رغبتها تتركك فريسة الرغبة وإدمانها، وهي تعلم أنك سترمح وراءها، تماماً كتاجر الأفيون، يعرض عليك بضاعته بطريقة جذابة ويتودد إليك، فإذا أدمنته تركك ليبحث عن غيرك.

رحت أبحث عن طريقة لأعرض عليه رغبتى الخفية، فسألته

بفضول لأفتح معه الحوار:

- أئن تذهب لأوروبا الليلة؟

رد دون أن ينظر إلي:

- وماذا تريد من أوروبا؟

- مجرد سؤال. ضائق النفس وأريد أن أغير جواً.

- فلتذهب إذا شئت. هلا تعرف الطريق؟

خذلني اللعين بعد أن أغواني، فلست بالجرأة ولا الحذاقة حتى

أذهب إلى هناك، وأطلب مومساً لقضاء بعض الوقت معها، وليس

لدي مفرداته لكي أطلب منها ما ينبغي فعله، لكن الماكر له طريقة

لا تبارى. تركته ومشيت كسيراً ذليلاً لأعناً إياه، ولا عنناً «أوروبا» بمن

فيه. لم أجد أمامي غير داليا، لكنها أصبحت كالنكتة القديمة التي لم

تعد تضحك، بل تحملك على الضجر.

لم أبتعد سوى خطوات حتى وجدته يناديني:

- ناجي. ما رأيك في مغامرة جديدة بدلا من أوروبا؟

قالها الملعون بطريقته الاستعراضية، فأعاد لي الحياة بعد أفول،

رحت أقول بحماس الجائع حين يدعى إلى وليمة:

- يا ليت، أنا معك في أي مغامرة.

قام من فوره وأعاد الكشكول الذي استعاره من زميله، وراح يتأبط ذراعي:

- هيا بنا .

- الآن؟

- يا عزيزي ليست كل المغامرات المثيرة في الليل، بل أكثرها إثارة هي التي تحدث في وضح النهار وفي أماكن لا تتخيلها .

هو أعلم مني، فمن يجادل شيطاناً في غوايته، ورحت أعد نفسي لتلك المغامرة الخفية. جلست بجانبه في السيارة، وكما فعل في طريق «أورورا»؛ راح يعرض علي بضاعته بطريقة فلسفية:

- النساء على قفا من يشيل، وعلى قدر ما في جيبك ستأتيك من تشعل رغبتك وتثير شهيتك، فإن لم تجد، وفر شهوتك لمن تستحق .

أخشى ما أخشاه أن أطلع من هذه الثثرة على فشوش، كالذي صام وفطر على بصلة . وبعد أكثر من ساعة من الرغاء والثغاء، توقف أمام المحكمة وقال لي:

- وصلنا .

- هنا؟

- أجل . أدخل ولا تخف . ستعيش تجربة لم تمرّ بها من قبل . أتبعته ناقماً عليه، وبالرغم من أن والدي رئيسٌ للمحكمة، فهذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها قاعة محكمة . قاعة واسعة مدرجة، هبطنا درجاتها سريعاً، قادني شادي وكأنه حجز المكان

مسبقاً خصيصاً لنا، جلسنا في الصف الثاني لیتسنی لنا رؤية وقائع المحاكمة، رحت أتأمل المكان بارتياب. أماننا مباشرة منصة مهیبة كتب أعلاها «وإذا حکتم بین الناس أن تحکمو بالعدل»، وعلى اليمين؛ القفص وبه المتهمون وقفوا ناکسي رؤوسهم في انتظار افتتاح الجلسة. بينما امتلأت القاعة بالحضور لیتسنی لهم متابعة وقائع المحاكمة، ندمت أشد الندم أن جئت إلى هذا المكان، ولعنت شادي في سري، ثم ملت عليه وهمست معاتباً:

- ألم تكن «أورورا» أفضل من هذه؟

أشار بيده دون أن ينطق، وانتفضت على صوت الحاجب يردد بصوته الجمهوري:

- محكمة.

دخل القاعة ثلاثة قضاة يتوسطهم الرئيس، وعلى صدورهم وضع الوشاح الأخضر، فوقف كل من في القاعة، بينما ظلت جالساً، فرغدني شادي في كتفي لكي أقف فوقفت. اتخذ القضاة أماكنهم على المنصة وصاح القاضي:

- نادي على القضية الأولى.

- قضية رقم (٣٩٥) لسنة ٢٠١٠ المتهمون فيها؛ محمد حامد بهنس وجمال حامد بهنس وعفاف حامد بهنس وهانم فتوح محرم. الادعاء يتفضل.

اتخذ الادعاء مكانه، كنت في البداية متململاً ولا سيماً حين بدأ الادعاء يسرد بعض مواد قانون العقوبات، فحدث لي وخم قاعة

محاضرات حقوق، التتميل والتثاؤب والغثيان، لكن تغير الأمر عندما أخذ المدعي العام يعرض وقائع القضية.

- قضيتنا اليوم تتنافى مع كل قيم الإنسانية، جريمة قتل بشعة، اتفق فيها الشيطان مع هؤلاء الأبناء، الذين قاموا بقتل أبيهم عمداً مع سبق الإصرار والترصد، بعد أن وضعت له زوجته «هانم فتوح محرم» منوماً في كوب العصير، فأفقدته وعيه، فقامت الابنة الصغرى عفاف بخنقه بإيشارب، بينما كال له الابنان محمد وجمال الطعنات حتى فارق الحياة، ثم وضعوه داخل شوال وحملوه وألقوه في مصرف خارج المدينة.

كنت أسمع غير مصدق، أبناء يقتلون أباهم بمساعدة الأم، ما الذي فعله الأب حتى تكون هذه نهايته؟ هل اكتشفوا علاقة مريبة بينه وبين امرأة أخرى؟ حتى لو حدث هذا، كيف يقدم هؤلاء على قتل أبيهم بهذه الصورة الوحشية؟

ثم جاء الدور على محامي المتهمين، فبدأ حديثه باستنكار هذه الجريمة البشعة التي أثارت الرأي العام، وبعد أن ذهب في وصف وقائع الجريمة واشترك شخوصها في قتل الأب بالخنق ثم بالطن، سكت قليلاً ليقول:

- أشعر أن مهمتي صعبة في الدفاع عن هؤلاء المتهمين، لكن لكل جريمة ظروفها وملابساتها، وإنني أرجو من المحكمة السماح للابنة الصغرى عفاف لتروي لحضراتكم كيف أقدمت على خنق أبيها بالإيشارب، بل شاركت إخوتها في طعنه.

من داخل القفص تحركت فتاة صغيرة في العشرين من عمرها أو دونها، لم تستطع ملابس السجن البيضاء أن تخفي جمالها وأنوثتها، فبدت كزهرة جميلة سقطت من غصن، تلفتت حولها بعينين زائغتين، وبدأت تتحدث بصوت متحشرج بجه النحيب:

- من يستطيع أن يقدم على قتل أبيه حتى ولو كان أباً قاسياً وعنيفاً؟ ومع ذلك لم يكن أبي من ذلك النوع القاسي العنيف، الذي يثور لأقل فعل ويضرب أبناءه بلا جريرة ويسب ويلعن، ما زلت أذكره وهو يحملني وأنا طفلة، فيدللني ويغني لي ويضاحكني، هذا هو أبي الذي أعرفه، وكنت أخشى عليه من أي مكروه، حتى السجائر كنا نرجوه أن يكف عنها، فكان أبي مدخناً شرهاً، ولم نكن ندرك أنه يتعاطى ما هو أخطر إلا عندما كبرنا قليلاً، وبدأنا نشم رائحة الدخان الأزرق النفاذة، فنسرع بالهرب إلى غرفتنا بعيداً عنه، حتى بلغ به الأمر أن يعود محمولاً على أكتاف أصحابه غائباً عن الوعي، وأصبحت تملكه عصبية غريبة وثورة عارمة بلا سبب، حتى عندما نهزته أُمِّي أن يكف عن هذه العادة الذميمة لم يكن نصيبها سوى السب والضرب وإطفاء السجائر في جسدها .

تسكت عفاف قليلاً لتُمنع موجة بكاء شديدة، ثم واصلت:

- كنت قد وصلت إلى المرحلة التي يتغير فيها جسد الأنثى، لم أكن سعيدة بهذا التغير ككل البنات، بل كان وبالاً علي، لم أكن أدرك سر تلك النظرات الغامضة التي يديها أبي إليّ، لم أنتبه إلى أنامله وهي تتعمد لمس صدري، وبجسده المخمور يتحشرج بجسدي، وبدأ

يحاول معي بقوة وعنف، رحت أبتعد عنه صارخة لاأثذة في ركن بعيد، وقد اختلط علي الأمر؛ أهذا أبي حقاً أم شخص آخر؛ وماذا يريد مني؟ لم يكن بمقدوري إبلاغ أمي وإخوتي.  
تتوقف عفاف لتمسح دموعها:

- ذات ليلة عاد أبي من الخارج مبكراً، وتصادف وجود أمي خارج البيت هذه الليلة لتمريض جدتي. وأخوأي لا يعودان إلا في الفجر، كان أبي هادئاً وديعاً على غير عادته، ابتسم لي وهو يمد لي يده بعلبة عصير، وراح يعتذر لي عن عصبيته معي ومع أمي وإخوتي، واعدأ إياي أنه سيقلع عن المخدرات جميعها وقريباً سيكف عن السجائر. فرحت أقبله في سعادة، وبعد أن شربت العصير لم أدر بأي شيء، حين أفقت وجدت ملابسني مبللة وبها دماء غزيرة، واكتشفت أنني فقدت عذريتي.

قالتها بصرخة تردد صداها في قاعة المحكمة وراحت تواصل في انفعال:

- لم أدر ماذا أفعل؟ هل أقول لهم؟ هل أصمت؟ لم أستطع البوح إلا عندما بدأ شيء غامض يتحرك في أحشائي. لا لا لا. لم يكن أبي الذي أعرفه، بل كان شيطانا شيطانا شيطانا.

سقطت عفاف على الأرض مغشياً عليها، بينما تصاعد الصراخ داخل القاعة. ورفعت الجلسة.

(٧)

## مثلي

خرجت من قاعة المحكمة مذهولاً، لا ألوي على شيء، لا أصدق ما رأيته وسمعته، بينما راح شادي يسخر من اندهاشي:

- وما العجب في هذا يا صديقي. لقد تغير المجتمع مئات المرات كأوراق الكوتشينة، فعيوب الماضي صارت مباحة والحرام أصبح حلالاً، مشكلتك يا ناجي أنك تعيش في مثاليات لقنت عليك في طفولتك، وصارت دستور حياتك، ولم يعد لها وجود الآن. لكن الحياة بها الكثير الذي ينبغي لك أن تعرفه وتتعلمه؛ وإلا صرت خاملاً خامداً لا جدوى منك ولا فائدة.  
قلت يائساً:

- ألا تكون للإنسان قيمة أو فائدة إلا إذا خرج عن المألوف؟

صاح في طيش أهوج:

- وما هو المألوف من وجهة نظرك؟ أن تعيش كما خطط لك أبوك، وتسير في الحياة أسير مزاجه وإرادته؟ الآباء كلهم واحد. صدع أبي رأسي بجمل صماء منقولة عن أجداده، عن الحرام والعييب وما ينبغي فعله وما لا ينبغي، لكنه لم يفعل بها لا هو ولا أجداده.

سألته بعقلانية:

- وهل ترى الأمل في الأجيال الموجودة حالياً، أو في تلك التي لم تولد بعد؟

هز رأسه وهو ينفخ بمرارة:

- مع الأسف نسخة مكررة ومشروخة أيضاً.

كنا قد وصلنا إلى بيته، فاستأذنته للرحيل إلى بيتي سيراً على الأقدام؛ فقد كنت مأخوذاً مما رأيته وسمعته في قاعة المحكمة، لكن شادي أصر أن أبقى معه في المنزل بعض الوقت، واعدإا إياي بأنه سيُوصلني بعد ذلك.

قادني شادي إلى حجرته وهو يواصل حديثه بصوت مرتفع:

- لكن هذا أهون بكثير مما ستراه بعينيك في هذه الدنيا.

ضغطت على كتفه محذراً إياه أن أحد أفراد المنزل يسمعه وهو يتحدث، فضحك في سخرية وواصل:

- اطمئن يا صديقي، الوالد لديه محكمة في الإسكندرية وسيغيب ثلاثة أيام، والوالدة مع صديقاتها في شرم، وأنا وحدي هنا، وهب أنهم سمعوا، هم يعرفون جيداً ما أفعله في الخفاء لأنهم يفعلون الشيء نفسه في الخفاء. قل يا باسط.

ثم قدم لي مشروباً وهو يقول بطريقة فلسفية:

- يا ناجي. اكسر التمثال الحجري الموجود في مخيلتك، لا أحد معصوماً من الخطأ، لأن الخطأ شيء معنوي قد نختلف عليه، فما تراه رذيلة هو عند الآخرين من أكبر الفضائل. افعل ما يرد برأسك دون خشية من عقاب أو لوم.

- أراك تتحدث بفلسفة غريبة يا شادي، ألم يأن الوقت للرحيل إلى «أوروبا»، فقد تقمت إلى رائحة الدخان المعتق وهو يتصاعد من النرجيلة، وكؤوس الخمر تدور حولي، فيتراقص ماؤها مع رقص الغواني، وأجسادهن المرمرية تموج كالبركان الهادر، فأمتثل إليهن طائعاً .

أطرق قليلاً وهو يرسم على وجهه مسحة من الأسى والحزن، وبدأ يتحدث بجديّة غريبة:

- مع الأسف هذه الأجساد بالرغم مما تبعثه فينا من فتنة وإثارة ورغبات محمومة، سرعان ما تخبو وتبرد وتتلاشى كجذوة النار المستعرة فوق الماء، ولا تجد فيها أي متعة أو رغبة. سنتدهش لو قلت لك؛ إن الجلوس بصحبة صديق مثلك، أفضل مئة مرة وأكثر إمتاعاً. والليلة بالتحديد لا أجد بداخلي أي رغبة لأوروبا أو غيرها، بل أنا سعيد بوجودي معك حتى لو قضينا الوقت حتى الصباح.

كدت أصدقه، فيبدو أنني كنت أظلم شادياً وأراه بعكس طبيعته الودودة الرقيقة، فمن يتحدث الآن ليس الفتى الفظ الهمجي سليط اللسان، فقد يكون هو الصديق الحميم الذي أبحث عنه دون أن أدري.

شدت على يديه وأنا أقول:

- شادي، كأنني أعرفك اليوم فقط. لماذا تبدو على غير حقيقتك.

سكت قليلاً، ثم بدأ يتحدث بصوت اختنق بالبكاء:

- لأن لا أحد يفهمني في هذا العالم، أعيش في بيت كئيب بين أب

وأم متناقضين؛ كالمقص، وما أنا سوى قصاصة سقطت منهما عنوة،  
أنا كائن بائس يا ناجي، أحصل على سعادتي بشق النفس وتجرع  
المرارة.

وانفجر بالبكاء، كم كنت قاسياً عليه. اقتربت منه مهوناً:

- هون عليك يا صديقي، فإذا كان قدرنا أن آباءنا لا يفهمونا،  
فدعني أكنّ لك الصديق الوفي الذي يقف بجانبك وقت الشدة. بح  
لي بكل ما يضايقك ويكدر حياتك. ها ماذا تريد؟

راح يتطلع إلى بعينين مدمعتين ويقول بضعف لم آلفه:

- أريدك. أجل يا ناجي أريدك أنت.

لم أفهم ماذا يريد، فأعدت عليه:

- ماذا تريد؟ لا تخش شيئاً بح بكل ما في نفسك.

وفوجئت به يندفع نحوي ويعانقني وما زال يبكي، ربت عليه مهدئاً  
من روعه. بينما راح يضغط علي بذراعيه، وشفته تطبقان على  
شفتي، ويدها تتسللان إلى جسدي تحاول لمس أعضائي. دفعته بقوة  
وأنا أصيح:

- هل جنت؟ ما هذا الذي تفعله؟

ما زال متشبهاً بي وهو يصيح في إلحاح:

- أرجوك يا ناجي لا تبعدني عنك، قربني منك وافعل بي كما  
أفعل، فأنا أهواك.

- ماذا دهاك؟ أنت مجنون بلا شك؟ أظنني أنثى؟

- بل ذكراً، أرجوك لا تذكرني بهن، فهن باردات كالثلج، أما أنت فدافئ وأنا لا يشعل شهوتي سوى جسد دافئ مثلك.

صرخت:

- مثلي؟

- أجل مثلي.

سددت له لكمة قوية في وجهه، وتملّصت من تشبته البغيض وانطلقت خارجاً، بينما صرخاته تلاحقني في توسل:  
- ناجي. انتظر. لا تتركني هكذا.

عندما وصلت إلى البيت كنت أشعر بالغثيان الشديد، ودهمتني موجة قيء عنيفة، ظللت أتقيأ حتى كاد يغمى علي.

(٨)

## إلهان

لا أدري ما الذي أصابني هذا الصباح. أشعر بإعياء ودوار. تركت فراشي. ذهبت لأعد لنفسي كوباً من الشاي. رأسي قطعة من الإسفنج. هكذا خيل إلي. لم أشعر بجسدي فوق قدمي. عيناي زائغتان. إحساس غريب ينتابني لأول مرة في حياتي. أشعر أنني أخلق في الهواء. ارتعد قلبي لتلك الفكرة. سرعان ما نحييتها جانباً. وقفت أمام المرأة متهيأً لحلاقة ذقني. شعور غريب استولى علي. لم أشعر بالارتياح إلى تلك الصورة التي تطل إلي من خلال المرآة. صورتني. تساءلت. هل يمكن للإنسان أن يمل صورته؟ عدلت عن حلاقة ذقني. تركت المنزل وقد تضخم لدي الشعور بعدم الارتياح إلى الضجر من كل شيء يحيط بي. الناس، الحيوانات، السيارات، الطرق، حتى المباني.

لم يكن لدي أدنى شك في أن الناس يبادلونني الشعور نفسه وتلك النظرة بالتأفف والضجر. الجميع لا يطيقونني، يبدو أنني قد فقدت جاذبيتني. ما أسوأ هذا الشعور. أن تجد قوى التجاذب بينك وبين الناس قد فترت وحل محلها التناظر والحقد والكراهية بلا مبرر. عدت إلى البيت سريعاً قبل أن أصل إلى الجامعة، وأنا أفكر في الحالة الشاذة التي وصل إليها الناس، وكأن كل الخيوط التي كانت تربطهم فيما قبل قد تمزقت.

شعرت بالجوع، لم يكن لدي الرغبة في الطعام. أريد طعاماً لا أعرفه ولم أذقه من قبل. طعاماً ليس له وجود على هذه الأرض. شعرت بالظلم. بالرغم من أن الماء كان قريباً مني، فإنني لم أجد داخلي الرغبة في ارتشافه، فهذا الماء لا يروي ظمئي ولا يبرد النار المستعرة داخلي.

يا لمزاجي المنحرف. كأن جسدي أصيب بأمراض البشرية وآلامها دفعة واحدة، رأسي يئن كالموتور المعطوب، أذناي تصفران بطنين عجيب اختفت معه كل الأصوات، وعياني غطتهما سحابة غائمة أعاقت الرؤية، أنفي تزكمه رائحة نتنة لا أدري مصدرها، أشعر بمرارة في حلقي تجعلني لا أقوى على البلع.

تذكرت ما حدث من شادي بالأمس، وشعرت برغبة عارمة في تحطيمه والقضاء عليه، وتمنيت أن يموت. سرعان ما نحيت هذه الفكرة عن رأسي، فتكفي هذه الرغبة الشيطانية التي تكونت بداخلي لتجعل مني قاتلاً بين عشية وضحاها، حتى دون أن أقتل، ودهمني سؤال راح يطن في رأسي. ما الذي يجعلنا مجرمين؟ وتذكرت الأب الذي اغتصب ابنته، والأبناء الذين قتلوه، لم يكن حادث القتل الوحيد الذي استرعى انتباهي، ففي الآونة الأخيرة زادت حوادث الاغتصاب والقتل والذبح بشكل رهيب.

كنت بحاجة إلى شخص أسر إليه بمكنونات نفسي المحطمة التي تتنازعها الأهواء والأفكار المتضادة، بالطبع لا يمكن الإسرار بما يعتمل بي لوالدي، فمن غير المعقول أن أصرح له أنني مارست

الجنس مع فتاة، وأني ذهبت مع شادي إلى أحد بيوت الدعارة، وأني تناولت معه الحشيش والخمر، فلا أدري مدى العقاب الذي يمكن أن يصدره علي، أستبعد أن يقوم بالإبلاغ عني حفاظاً على مركزه الرفيع، لكنني لا أستبعد أبداً أن يقوم بنفسه بتنفيذ حكم قاس علي، حكم إلهي لا يعرفه البشر، أشد قسوة من حكم المحكمة.

فكرت كثيراً أن أعترف لأمي الطيبة الحنونة، ورحت أقرب منها منكس الرأس كسيفاً، لاحظت هي ذلك فأسرعت تقول:

- ماذا بك يا ناجي، تعال، هل هناك شيء؟

كدت أعترف لها، لكنني تراجعته ليس خوفاً منها وإنما إشفاقاً عليها، وحرماً من خدش حياتها وبراءتها، فلا أتصور أبداً أن إلهة كأمي تعرف ما يدور خارج مملكتها من فسق ومجون ورذيلة، ولا يمكن أن يرد على عقلها أن هناك شيئاً اسمه «المثلية»، فتراجعت على الفور وأجبتها وأنا حسير:

- لا شيء يا أمي. لا شيء.

وهكذا شعرت لوهلة أن ما يصيب الجنس البشري من أوبئة وأمراض، راحت تتفشى بشكل جنوني، لا يعادل أسقام النفس البشرية الرابضة في خلايانا منذ بدء الخليقة، وتتوارثها جيلاً بعد جيل، وبدت لي الحياة بزخمها وعضفوانها وسطوتها، كبالون مملوء بالهواء أوشك أن ينفجر، وما أنا سوى كائن خرافي يرقد على قرني ثور، ولديه إلهان أحدهما قاس عنيف والآخر طيب حنون، ومجموعة من الشياطين منهم «داليا سعفان» و«شادي أمين»، وقد انضمت لهما بالتبعية، ولا يوجد ملائكة.

(٩)

## اليوجينيون الجدد

أخيراً وجدت الملاك في معمل بيولوجي، «فضالي علم الدين»، أستاذ الوراثة المتفرغ بالكلية، رجل تجاوز السبعين، متوسط الطول، يبدو شعره الأبيض الناصع المحلق فوق رأسه كسحابات تخفي سيالاً من العبقرية داخل عقله، عيناه الزرقاوان يشعان نوراً وحكمة، اتخذت التجاعيد التي في وجهه مسارات عمر ولى، كل خط يشهد على تجربة أو اكتشاف علمي، ومعدرة إذ ذكرته دون ألقاب، بلا دكتور أو أستاذ أو بروفسور، بالرغم أنه يعد من العلماء المشهود لهم بالعلم والبحث في جامعات أوروبا وأمريكا، ولأنه لم يستجب لسياساتهم، تم الاستغناء عنه، وعاد أستاذاً وسطاً أقزام يتصارعون على المنصب الوظيفي والثروة والجاه، فانزوى قانعاً بتحقيق هدفه الأسمى، وهو توصيل العلم لمريديه.

وكان كلاً منا وجد ضالته في الآخر، فكان بالنسبة إليّ المعلم الأوحده، وكنت بالنسبة له التلميذ الوحيد، فنمت بيننا صداقة تجاوزت قاعات الدرس والمعامل. زرتة في بيته المتواضع وتعجبت. أنى لهذا العالم الجليل أن يعيش هذه الحياة البائسة؟ بيت متواضع في حارة ضيقة، لو اندلع فيها حريق فلن تتمكن سيارات الإطفاء من الدخول لإطفائها، يستقل حتى يصل إلى بيته العديد من وسائل

المواصلات، من مترو الأنفاق لعربات ميكروباس وأتوبيسات وتكاتك، وأحياناً عربات كارو.

وفوجئت بـ«نيللي فؤاد» معنا في معمل الدكتور فضالي، زميلة سنة أولى علوم، قدمها لي باعتبارها مساعده. بالرغم من التحية الفاترة التي تبادلناها، سعدت بوجودها، على الأقل ستمدني بالمحاضرات التي سأتغيب فيها عندما أكون موجوداً في الحقوق.

هي أشبه بالإنسان الآلي، تسمع تعليمات الدكتور فضالي وتتفذهها بدقة، لا تخطئ أبداً، حتى مساحة الود التي كانت تبديها لي في الكلية، تلاشت هنا تماماً، تأتي في الصباح الباكر، وتجهز المعمل والعينات التي ستجرى عليها التجارب، والتأكد من سلامة الميكروسكوب والعقاقير، إذا ألقيت عليها التحية؛ ترد بفتور إما بهزة من رأسها، وإما ببضعة حروف؛ صمتها أكثر من جهرها. رحت أتأملها وهي تتحرك داخل المعمل كالبنديل، فصارت جزءاً منه، كالميكروسكوب والعينات والكمبيوتر، الذي تسرع إليه لتدون كل ملاحظة وخطوة تقوم بها.

تساءلت يوماً فيما بيني وبين نفسي وأنا أديم النظر إليها، أليست أنثى مثل لوسي وداليا سعفان؟ بها ما يحركها نحو الجنس الآخر، لماذا لا أجرب معها؟

حاولت مراراً الاقتراب منها، وافتعال مناسبات للعمل معاً، لكنها لم تعطني الفرصة، جادة حادة باردة كالثج. حانت الفرصة عندما طلب مني الدكتور فضالي توصيلها بعد يوم طويل من العمل داخل المعمل، ونحن في الطريق سألتها عن طبيعة العمل في معمل الدكتور فضالي، فأجابت:

- هي فرصة ذهبية بالنسبة إليّ من أجل الحصول على الماجستير والدكتوراه.

عدت أسألها :

- وماذا عن الحياة؟ غدا يكون لديك أسرة زوج وأبناء.

تجهم وجهها قليلاً لكنها راحت تجيب بسرعة:

- لا أفكر في هذا الأمر، ولا سيّما في الوقت الراهن. أنا منشغلة طول الوقت بمستقبلي، مستقبلي فحسب. أما فكرة الزواج والأسرة، فلا أفكر فيها الآن، وبصفة عامة أرى أن الزواج يقيد الطموح ويقتل الإبداع.

لا . ليست كلوسي ولا داليا سعفان، ولا أي أنثى. فتركتها وشأنها. وعدت إلى أستاذي الدكتور فضالي، أقضي معه معظم الوقت، تتبادل الأفكار، فأشعر كأن سيالاً من أشعة نورانية نفذ داخل عقلي ليفتح أمامي رؤى مستقبلية. حتى حانت لحظة، انتهزت فرصة عدم وجود «نيللي فؤاد» وأسررت له بسري الدفين:

- يا أستاذي. أنا ممزق بين دراسة العلوم ودراسة الحقوق، روعي ووجداني يتعلقان بقوانين الوراثة والبيولوجي، وقلبي وعقلي يمتقتان قوانين الحقوق وموادها الصماء، ملف دراستي في كلية الحقوق، لم أحضر غير محاضرة واحدة في بداية العام لم أفهم منها شيئاً. بينما الخلية ونواتها ومكوناتها هي عالمي السحري الفريد في اتساعه وبريقه.

ربت على كتفي مهوناً وهو يبتسم تلك الابتسامة الهادئة الوديدة:

- وهل تعتقد أن دراسة الحقوق، يمكن أن تحول بين نبوغك العلمي، وتعلقك بالهندسة الوراثية ودراسة البيولوجي؟  
 - كيف يمكن التوفيق بينهما يا أستاذي، وهما على طرفي النقيض، ولا سيّما في بلادنا .

نهض من مقعده وراح يدور حولي وهو يعقب:

- ألم تسترع انتباهك الحوادث البشعة التي تحدث هذه الأيام بالذات؟ حوادث القتل والذبح والاغتصاب والشذوذ التي انتشرت بشكل غريب في الآونة الأخيرة دون مبرر، نوع من السعار حدث فجأة جعل الناس يرتكبون جرائمهم وكأنهم منومون أو مدفوعون إليها بلا إرادة.

قاطعته:

- يا أستاذي الإنسان هو الإنسان منذ بدء الخليقة، والجريمة قديمة قدم ظهور الإنسان على الأرض.

اقترب مني وهو يقول بصوت خفيض وكأن أحداً معنا في الحجر:

- هناك خلل بيولوجي ما أثر على التركيب الجيني للإنسان. إنها اليوجينيا .

- يوجينيا؟

رحت أردد كلمته الأخيرة، كإنذار خطر راحت توابعه تطن في رأسي طنيناً مزعجاً، بينما تابع بأسى:

- أجل، الهدف المعلن تحسين السلالات البشرية، بانتزاع الصفات

الضعيفة وغير المرغوب فيها من خلايانا، وتحفيز الصفات المرغوبة، وظهور أجيال من السوبرمان حسب الطلب، لكن الهدف الخفي، تدمير العالم، واختصار عدد سكان الأرض إلى النصف أو الربع، بحجة أن يتلاءم المعروض من الثروة والماء والغذاء، مع الطلب عليه، وتحويل العالم إلى طبقات من الأذكى والأقل ذكاء والأكثر قوة والأشد ضعفاً، لتنشأ صراعات جديدة ستذهب بالكرة الأرضية إلى الجحيم.

قاطعته ثانية:

- اسمح لي يا سيدي. ما دليلك على هذا، وما هو المبرر المنطقي لاتهامك الخطير؟ وقد مللنا نظرية المؤامرة التي أصبحت شائعة نعلق عليها كل خيالاتنا وتخلفنا.

يبدو أنني تجاوزت الحد في الحديث معه ورفعت الكلفة التي بيننا، لكنه أشرق قليلاً وجلس قبالي وهو يمد يده إلى مكتبته ويخرج مجلة راح يفر صفحاتها، ثم توقف عند مقال ومضى يقرأ:

- لقد انتشرت معامل اليوجينيا في جميع أنحاء العالم، وأصبح التدخل البشري له وجهان؛ وجه إيجابي بتحسين صفات البشر وإنتاج أفراد متميزين صحياً واجتماعياً، ووجه سلبي يهدف إلى تخليص المجتمعات من كل العناصر الضعيفة، كالمرضى والعجائز وغير القادرين على الإنجاب.

ثم هز الدكتور «فضالي» رأسه وقد لمحت في عينيه نظرة بائسة وواصل بمرارة:

- ومع ذلك لم تتوقف الحروب وإزهاق الأرواح بانتهاء الحرب

العالمية الثانية، فرق الموت تمارس عملها بكل حماس دون أن يمنعها مانع وتحت أسماء مختلفة، الإرهاب تارة، والإسلام السياسي تارة، ناهيك عن سلاسل من الأوبئة والأمراض الفتاكة راحت تنفث فينا . إنها بدائل للموت وإزهاق الأرواح يمارسها الیوجینیون الجدد .

- الیوجینیون الجدد؟

سألته وقد صعقتني جملته، فأجاب مؤكداً:

- إنهم موجودون بكثرة، يمارسون عملهم بهمة لتنفيذ مخططاتهم، لصالح كيانات همجية تسعى للسيطرة على العالم، منهم أساتذة جامعات، وأطباء، وعلماء اجتماع، وسياسون، وعسكريون، واقتصاديون، وكُتَّاب. ربما لا يعرفهم أحد . فقد تُركوا وشأنهم لإعادة تشكيل المجتمعات وصناعة البشر.

صحت معارضاً أستاذي:

- صناعة البشر كيف هذا يا بروفيسور؟

واصل:

- أجل صناعة البشر، بناء المجتمعات من جديد حسب مخططاتهم؛ فجماعة تؤكد تَفُوقَ الجنس الآري الأبيض، وأخرى تعمل كي يصبح الإجهاض قانوناً في العالم بأسره، وثالثة تطور وسائل منع الحمل، لتعقيم مجتمعات كاملة بهدف إبادتها، ورابعة تعمل على السيطرة والتحكم في موارد العالم؛ تحت مسمى «الحفاظ على الموارد»، لم يحدث أي تغير حقيقي في فكر الیوجینیين، هم يسعون إلى تحقيق الأهداف القديمة نفسها، الجرائم ضد الإنسانية، والإبادة الجماعية.

كنت مذهولاً مما أسمع وأنا قد تعودت من أستاذي الدكتور فضالي أن يتحدث بمنطقية شديدة ويدعم أقواله دائماً بالبراهين والإثباتات، أما أن يتجه إلى نظرية المؤامرة وعرض الاتهامات هكذا على عواهنها، فقد كان غريباً علي.

- كأنك يا أستاذي تحدثني عن كائنات تعيش على كوكب خارج مجرتنا، وتهدد بنسف الأرض. ونسيت أن هؤلاء أفراد مثلنا وسيصيبهم الضرر نفسه لو حدث ما نتحدث عنه.

أفرج عن ابتسامة متعسرة وراح يقول:

- تتعجب من كلامي؛ ما زلت يا صغيري ترى الأمور بمثالية من لم يخبر الحياة ويسلك دروبها. فلا يرى أمامه إلا اللون الأبيض ويرفض الألوان الأخرى.

وللمرة الثالثة أنعت بالمثالية من «داليا سعفان» ومن «شادي أمين»، وهذه المرة من أستاذي «فضالي علم الدين»، وأي مثالية تلك التي أوصف بها بعد علاقتي المشينة بداليا وتعلقى بملهى «أورورا» الرهيب. كدت أعترض لكنه واصل حديثه:

- ألم تفكر لحظة لماذا ألقى الولايات المتحدة الأمريكية قبليتي هيروشيما ونجازاكي على اليابان منهيّة الحرب العالمية الثانية. هل ما زلت تعتقد أن الهدف سياسي أو حتى عسكري؟ لماذا صراعات الحدود على أشدها في جميع أنحاء العالم، ناهيك عن الصراعات العرقية والإثنية والقبلية. الأمر أخطر مما يتصوره إنسان، والدليل على ذلك أنه بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية اختفت «اليوجينيا»

بعد كل ما جرّته على البشرية من دمار، وإهدار لكرامة الإنسان. وظن العالم حينئذ أنها انتهت إلى غير رجعة؛ لكن الحقيقة أن الیوجینیا لم تنته، ولم يسقط الیوجینیون!

قال جملة الأخریة بصوت خفیض كمن یخشی أن یسمعه أحد، ثم واجهني وهو یضع یده على كتفي، كأنه یبث فیّ قبساً من نور:

- هل فكرت يوماً فیمن سیدافع عن قضايا الوراثة والتعدیل الجینی؟ من سیحافظ على أخلاقیات أبحاث الیونوم البشري والهندسة الوراثة؟ من سینقذ البشرية من فوضى الیوجینیا؟ إن العالم الیوم أصبح بحاجة إلى رجال قانون يفهمون فی قانون الوراثة بجانب مواد القانون الأخری، یدركون مخاطر العبث بالهندسة الوراثة وجرائم الیوجینیا والتعقیم الجینی. لكي یحاكم هؤلاء جميعاً أمام محاكم ستنشأ خصیصاً لهذا النوع من الجرائم.

وكأنني أبحث عن بئر أمینه أخبئ فیها زلاتي، أو عن قدیس أعترف أمامه بخطیئاتي. فرحت أقص علیه ما بیني وبین «داليا سعفان» ومقتي لـ«شادي أمين» المثلي الأرعن، حدثته عن زیاراتي المتكررة إلى المحكمة والقضايا التي لم نكن نسمع عنها من قبل عن آباء یغتصبون بناتهم، وأبناء یقتلون آباءهم، حدثته عن والدي وفضاظته، وشكي فی كل شيء حتی فی وجود الله.

كان یسمعني وهو یبتسم ویهز رأسه مؤیداً، حتی ظننته ملحداً أكثر مني، ووجد شریكاً له فی أفكاره، وبعد أن انتهیت راح یقول بهدوء:

- لن أكون لك واعظاً یرشدك إلى الصواب ویحذرك من الخطیئة،

بل كل ما أرجوه منك هو أن تعمل عقلك، تأمل، تفكر، ابحث بنفسك حتى تصل إلى حقيقة هذا الكون. وعندئذ لن ألوّمك بل سأعتبرك أول نسخة بشرية تحاول اكتشاف هذا الكائن الغامض. الإنسان.

يسكت قليلاً ثم ينظر لي بعين مدمعة:

- يا بني إننا نتاج جيناتنا والسبب فيما نرتكبه كل لحظة من جرائم وكوارث؛ أن جيناتنا هي التي تدفعنا إلى ذلك. فإذا كان بعض المنجمين يعتقدون أن مستقبلنا مكتوب في النجوم. فأؤكد لك الآن أنه مكتوب داخل جيناتنا.

ظلت جملة البروفيسور «فضالي علم الدين» ترن في أذني «نحن نتاج جيناتنا»، وصار رنينها يلازمي طوال فترة دراستي للقانون بكلية الحقوق، حتى بعد تخرجي، فقد حصلت على ليسانس الحقوق، وفي الوقت نفسه بكالوريوس العلوم دون شهادة. بينما حصلت «نيللي فؤاد» على تقدير امتياز وعيّنَت مُعيدةً في كلية العلوم.

(١٠)

## الإغواء الأخير

إن الرضا الذي يصيب الناجحين لا يعادل الآلام التي يسببها فشل الفاشلين، أجل حصلت على ليسانس الحقوق، ولكن شعوري بألم الفشل لعدم تحقيق حلمي بالحصول على بكالوريوس في البيولوجي والهندسة الوراثية والتكنولوجيا الحيوية، يفوق شعوري بالسعادة لحصولي على الليسانس بتقدير جيد. في الوقت الذي حصل فيه «شادي أمين» على تقدير جيد جداً، التقيته بالكلية يوم إعلان النتيجة، وراح يتحدث بخيلاء وشماتة:

- تعساً لك ناجي. يمكن لسعادة المستشار أن يوصي أحد معارفه لتعمل محامياً لدى إحدى الشركات، معذرة مضطر أن أتركك لمعاينة مكتب المحاماة الذي أخذته في وسط المدينة. باي.

رحت أرمقه وهو يستقل سيارته ويطلق لها العنان، وبدا جلياً من لهجته ما يخبئه لي من بغض قديم.

ووجدتها فرصة لدراسة معشوقتي «الوراثية»، وذلك بالسفر إلى الولايات المتحدة لاستكمال دراساتي هناك. ولكن هل سيوافق سيادة المستشار؟

لم يحفل أبي بالنجاح، لوى شفتيه وهز رأسه وهو يردد في أسي:

- كنت أنتظر من ابن رئيس المحكمة الدستورية العليا أن يكون الأول على دفعته، أو على الأقل امتياز. لكن لا بأس، قدرني أن أقوم أصلح ما أفسده الآخرون، غداً ستذهب لتقديم أوراقك في النيابة العامة، لقد أوصيت عليك.

شجعني نجاحي أن أجادل أبي للمرة الأولى:

- أعلم أن حضرتك قد رسمت لي الطريق منذ مولدي، وسوف أكون عند حسن ظنك، وسأنفذ كل ما تريد بالحرف الواحد، فقط لي رغبة في استكمال دراستي العليا بالولايات المتحدة الأمريكية، وحصولي على الماجستير ثم الدكتوراه، على الأقل تعويضاً لتقدير جيد حصلت عليه، ولن أفسد خطتك، بل سأدعمها، فأنا أريد أن أقدمني لزملائك القضاة والمستشارين وأنا أحمل لقب دكتور من الولايات المتحدة مع مرتبة الشرف الأولى وليس جيداً.

راقت له الفكرة، وراح يزنها في عقله، ثم هز رأسه موافقاً:

- ليكن.

وتعجبت كيف وافق أبي بهذه السرعة دون أن يعطيني محاضرة في أهمية النيابة العامة، وأنها تعادل أضعاف الدكتوراه، بل سارع بعمل اتصالاته لاستخراج جواز السفر والتأشيرة والتقديم في إحدى الجامعات في الولايات المتحدة للحصول على الدكتوراه في القانون.

الشيء الوحيد الذي كان يحز في نفسي ويؤرقني هي أمي، الإلهة الطيبة، فهذه هي المرة الأولى التي أفارقها، كيف ستعيش بعد سفري

وأين؟ أعلم أنها ستذهب لتقيم في بيت أسرتها بالمنصورة، فكثيراً ما كانت تأخذني معها في الإجازات عندما تضح من صرامة أبي. مسكينة يا إلهي الطيبة، لو كان بإمكانني لأخذتك معي.

أما الذي كان أكثر سعادة هو أستاذي البروفيسور «فضالي علم الدين»، فقد جلس يكتب رسالة لأحد معارفه في جامعة بنسلفانيا يوصيه علي، لمساعدتي في التقدم لقسم التكنولوجيا الحيوية لدراسة الهندسة الوراثية هناك. وكلف «نيللي فؤاد» بمراسلة بعض الجامعات والمراكز العلمية بالخارج، وإرسال سيرتي الذاتية إليها. ثم نظر لي بعينين مدمعتين وقال:

- تذكر يا ناجي أنك ذاهب لتحقيق حلم البشرية للقضاء على اليوجينيين وكشفهم أمام العالم، ومعاقبتهم، بل وضع القوانين التي تجرم أعمالهم الدنيئة.

وشعرت برغبة شديدة للقاء «داليا سعفان»، لآخر مرة كشيطان، قبل أن أتحوّل إلى إنسان معدل، ينفض عن كاهله كل الدنيا والنقائص البشرية. علمت أنها تزوجت من أحد المحامين كانت تعمل عنده وهي طالبة كنوع من التدريب، ومع ذلك لم تمنع في اللقاء، بل شجعتني عليه. ويا له من لقاء فاتر ممل، فلم تكن في جاذبية وإغراء المرات السابقة، أو ربما لم أكن أنا بنفس الرغبة التي كنت فيها، وقد لاحظت ذلك، فراحت تقول في تبرم وهي تلقي تنهيدة ثقيلة:

- يا لبؤس الحطب بعد أن يزياله الوهج، فلست أنت الشيطان الذي كان هنا من قبل.

- حتى الشيطان يأتي عليه وقت يمل شيطنته، ليست توبة أو ندما، لكن فقدنا لبعض إغوائه.

قلت ذلك مطرفاً، بينما تركت هي الفراش وراحت تشعل سيجارة:

- كل هذا من أجل السفر؟

ووجدتها ذريعة معقولة فرحت أتعلق بها تعلق الغريق في قشة:

- ربما . تجربة جديدة لا أدري هل ستنجح أم ستفشل؟

- إذن عشها كما هي بنجاحها أو فشلها، دون أن تضع معايير تحقق

لها النتائج التي ترجوها، بل دعها تعطيك نتائج أخرى لا تتوقعها .

نصيحة لها قيمتها من شيطانة فشلت في الإغواء الأخير . وهذا

بالفعل ما كان يدور بذهني في الأيام الأخيرة قبل سفري .

سألتها :

- أسعيدة مع زوجك؟

لوت شفيتها :

- هو زوج مجرد زوج . لديه طموح لا حد له أن يكون محامياً

كبيراً ثرياً، لا يفكر إلا في الأتعاب، الفراش بالنسبة له ليس أكثر من

قضية سيحضر جلستها ويتقاضى أتعابها، لا إثارة، لا مفاجآت، ومن

ثمّ انعدمت اللذة .

تركتها ومشيت بينما ظل سؤال يتردد فيما بيني وبين نفسي،

ما جدوى الحياة طالما كل ما نفعله مسطر داخل خلايانا منذ الأزل،

نتوارثه جيلاً بعد جيل، معنى هذا أن خطايانا ليست نابعة منا، بل

هي وراثية، ورثناها عن أجداد لم يخطئوا بدورهم، بل ورثوها عن أسلافهم، فهم يفعلون ما يريدون حسب التعليمات المدونة على خلاياهم دون إرادة منهم.

يبدو أن الجينات تُسير كل شيء في هذه الحياة. يرث البشرُ جينات تحدد لهم صفاتهم الجسمية ومواقفهم السياسية وميولهم الدينية وسماتهم الشخصية.

كدت أجن، وقبل أن أدخل في النوم هربا من هذه المناقشة الفلسفية التي دارت في عقلي أفتعت نفسي بأن الحياة ليست بها خطيئة، وأن البشر وضعوا تلك الكلمة الجوفاء لتقنين حياتهم ومن هنا ظهر القانون.

(١١)

## بين السماء والأرض

بدأت الطائرة تتحرك على مدرج مطار القاهرة، في طريقها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، في أول تجربة لي للخروج من مصر، سعياً وراء حرية؛ لا أدري إن كانت مخرجاً لي، من القيود العديدة التي فرضت علي منذ مولدي، أم أنها قيد جديد، سيضاف إلى سلسلة القيود المعلقة في عنقي. وراحت الطائرة تشق ركام السحاب المكوم كقناطير القطن، فأغمضت عيني على دمعات أمي، التي أصرت أن تأتي لتوديعي، فكانت آخر ما رأيت قبل أن أغادر القاهرة.

أروض ذهني المشتت بين أحداث مطوية، راحت تعرض صورها بطريقة «الفوتومونتاج»، في لقطات سريعة تتوالى، من عنف، لحدة، لجزر، لقهر، لمشاهد مثيرة تتكرر تباعاً، وبين رؤى مستقبلية؛ تناوشني لعالم أجهله، وأجهل تفاصيله وشخصه، لا أدري ماذا سيحدث لي فيه؟ هل سأنجح، أم سأعود بخُفي حنين؟ وعندما تعييني الحيلة وأعجز عن الإجابة؛ ألوذ بدمعتي أمي، التي تركتهما في عيني، تحملان اللوعة والحنين، وابتسامتها الهادئة تتخيل على شفيتها، لتقويني وتشجعني.

بينما حديث الأمس الذي جرى بيني وبينها يدور في مخيلتي، لا أدري ما الذي جعلني ألح عليها لتفسر لي تلك العلاقة الغريبة

التي بينها وبين أبي المستشار، لماذا هذا الجفاء غير المبرر بينهما؟ راحت تحاور وتناور وتهرب من الإجابة مثلما تفعل كل مرة؛ لكنها وافقت أخيراً تحت إلحاحي؛ وكأنها ضاقت بهذا الحمل الثقيل الذي تحمله وحدها زمناً طويلاً، فقررت أن أشاركها في حمله. أطلقت زفرة ألم ثقيلة وراحت تقول:

- لم يكن زواجنا عادياً منذ البداية، لم أسترح له ولم يسترح لي، فقد بدأت علاقتنا بحدث سير، فمنذ البداية طريقنا مختلف، أنا ذاهبة وهو قادم، فاصطدمنا، وبالرغم من أنه كان المخطئ لكنه لم يعتذر، بل راح يحملني التبعة متهما إياي، بأنني ينبغي أن أعود لمدرسة تعلم قيادة السيارات لأخذ دورة إضافية، ولو كان الأمر بيده لسحب مني الرخصة. لكن هناك الكثير من العلاقات الشاذة والمستحيلة ويكتب لها النجاح، لا أدري كيف وجدته في بيتنا بعد أسبوع طالباً يدي، ولا أدري أيضاً لماذا وافقت، لكن هكذا سارت الأقدار، لم يحدث بيننا خلافات قوية تهدد بانهيار زواجنا، تفهمت سريعاً طبيعة عمله، وتفهمت أكثر شخصيته، هو كما تعرفه لا ينفعل كثيراً هادئاً دائماً، لكن خلف هذا الهدوء يخفي ما هو أخطر.

تسكت أمني قليلاً لتزدرد مرارة شعرت بها في حلقها ثم تواصل:

- حصلت أول مشكلة بعد حملي بك، عرف عن طريق الصدفة أنه كان لي أخ أصيب في طفولته بمتلازمة داون، جلس يحدثني ما يقرب من الساعة في موضوعات كثيرة عن خطورة الأمراض الوراثية، وتبعة ظهور هذه الحالة في الأسرة قد تتسبب في إنتاج جيل من المتخلفين

عقلياً . أخذ يحاور ويناور ويلف ويدور وأخيراً ألقاها كقنبلة . لا بد من التخلص من الجنين . رفضت بشدة تمسكت بك في بطني التي تحملك أيا كان، وفوجئت به بعد أيام يتقدم بقانون يبيح للأزواج تعقيم زوجاتهم، إذا كان هناك احتمال بوجود مرض وراثي، يؤدي إلى وجود أبناء غير أصحاء .

صحت رغماً عني:

- يوجيني؟

لم تفهم أُمي مغزى سؤالِي، لكنها واصلت:

- عملت كل طريقة للاحتفاظ بك ولم أمتثل له، حتى جئت إلى الوجود، لكنه كان يخشى دائماً من الحمل القادم، وكأنه واثق من أنني أحمل داخلي الجنين المريض، فأثر السلامة وقرر أن تنفصل، واقترح علي أن أبقى في المنزل لرعاية الطفل بين أبويه، حتى ينشأ طبيعياً، وهو في حقيقة الأمر لا يريد أن يمسه أي شيء يهدد جبروته وسطوته . فاخترت أن أبقى من أجلك .

وعاد السؤال اللوح يطاردني في وحدتي وأنا معلق بين السماء والأرض . لماذا جئنا إلى الوجود؟ وما جدوى أن نحيا حياة قاسية كئيبة، خالية من الرغد والحبور؟ بين بشر يفعلون ما يعين لهم دون أن يمنعمهم إله .

تصادف يوم رحيلي أن وقع حادث قتل جديد، أكثر بشاعة وفي وضوح النهار، شاب يذبح خطيبته لشكه في سلوكها، انتظرها وهي عائدة إلى بيتها ليلاً، وراح يكيل لها الطعنات حتى فارقت الحياة،

والعجيب أنه لم يقاوم ولم يحاول الهرب حتى ألقى القبض عليه، والأعجب أن عدداً كبيراً من الناس تعاطف مع الجاني القاتل؛ متهمين الضحية القتيلة بالمسؤولية عما حدث.

وتذكرت حديث الدكتور فضالي عن اليوجينيين الجدد وما يدبرونه للقضاء على العالم. ترى هل هناك علاقة بين حوادث القتل الأخيرة واليوجينيا؟ لذلك قررت منذ اللحظة الأولى لي في أمريكا أن أعمل عقلي. ويكون هذا هو الموضوع الأساسي الذي سوف أبذل فيه قصارى جهدي وأعرف تفاصيله ودقائقه وخبائاه.

(١٢)

## بيتر شنودر

كان كل شيء مشجعاً للبحث والمعرفة، أنت من تملك فتح المغاليق والدخول، ولكن حذار أن تتعدى المسموح لك، أو تتجاوز حدودك في هذا البلد العجيب، أنت حر فقط فيما يتاح لك من معلومات، فإذا حصلت على معلومة سواء بإرادتك أو رغماً عنك فستكون قيدك ودافعك إلى الهلاك.

وكما هو محدد لي سلفاً، توجهت إلى قسم الدراسات العليا بكلية القانون، ولأنني لم أجد؛ كما هو الحال في بلادنا؛ قسماً متخصصاً في قانون الهندسة الوراثية والجينوم البشري واليوجينيا؛ التحقت بفرع القانون الجنائي، حيث يهتم هذا التخصص بدراسة الجريمة وأسبابها وتداعياتها بشكل عام. وتتبع مرتكبيها، ومراقبة سلوكهم. والنظر إلى الدوافع التي من شأنها أن تدفعهم إلى ارتكاب الجرائم ومحاولة منعها. فقد وجدت في هذا التخصص اقتراباً وصلة وثيقة بما أبحث عنه في مجال اليوجينيا، ومن سيكشف جرائم اليوجينيا غير قانوني متخصص في العلوم الجنائية.

وهذا ما شجعني عليه البروفيسور «بيتر شنودر» أستاذ الوراثة بكلية الطب جامعة برنستون، صديق الدكتور فضالي، الذي استقبلني في المطار، ومضى يحدثني عن الدكتور فضالي ويشيد به كرجل علم

يستحق جائزة نوبل، لكن طموحه الضيق وأفكاره الرجعية أفقدته الكثير من الفرص. أوضح له الدكتور فضالي أنني قادم لدراسة القانون، وأريد أن أربط بين القانون ودراسة الجينوم البشري. فرحب كثيرا وأشار علي أن أتقدم لقسم التكنولوجيا الحيوية بكلية الطب لدراسة الجينوم البشري كما ينبغي. ووعدني بأنه سيوجد لي عملا في مركز الأبحاث الذي يرأسه، فالدراسة باهظة التكاليف، ثم دعاني البروفيسور «شنودر» في أحد المطاعم الشهيرة. رجل مرح خفيف الظل، يتحدث بتلقائية وود، جذبني إليه منذ الوهلة الأولى.

هو في قاعة المحاضرات بالجامعة كما في المعمل أو في النادي أو المطعم، نفس الرجل التلقائي خفيف الظل، وكما أشاد بي الدكتور فضالي، انهر البروفيسور «بيتر شنودر» بولعي بالورثة، ومن هنا نشأ بيننا هذا التجاذب الرائع.

بدأ حديثه معي بقوله:

- لك أن تتصور «ناجي» أن الجينوم البشري يضم كل الجينات المختلفة في خلايا البشر منذ بدء الخليقة إلى الآن، بل أكثر من ذلك يمكن بتحليل الدنا أن نكتشف أين نشأ أجدادنا، وكيف كانوا يعيشون، وسجلا لتحركاتهم وهجراتهم حتى جرائمهم وحروبهم وصراعاتهم. والمعجب أن كل هذا مدون في خلايانا. وستمكنا الخريطة الجينية من التنبؤ باكتشاف المرض الذي يسببه الجين السائد، وبذلك يمكن اتخاذ كل التدابير الملائمة لمنع انتشار المرض أو على الأقل التخفيف من آثاره.

يسكت قليلاً ثم يضيف:

- لقد دخلنا عصر الهندسة الوراثية والبيوتكنولوجي والجينومي، وتزايدت الأبحاث التي تربط الجينات بالصفات السلوكية، وبالذكاء. وأعلن بشكل صريح عن صحوة جديدة لليوجينيا بالإعلان عن «نوع» بشري جديد.

صحت معقّباً:

- لا أستطيع أن أقتنع أنه يمكن اختصار الإنسان في جين. فمنّ يستحق أن يحمل هذا الجين، لكي تُكتب له السيادة.

هز رأسه وهو يعمل أسنانه في قطعة من الدجاج:

- الناس ليسوا بطبيعتهم متساويين «ناجي»، فمن الصعب أن نحقق اليوجينيا بوجهها الإيجابي في مجتمع ديموقراطي. وحتى يتحقق هذا الهدف لا بد من الخداع والقهر. وكان هذا أول خلاف في الرأي بيني وبينه.



في قاعة المحاضرات كنت أجلس منتبهاً إلى كل كلمة تصدر عن البروفسور «بيتر شنودر»، خاصة عندما يتحدث عن ذلك السر الكامن فينا منذ بدء الخليقة، ذلك الشريط الساحر الذي يحمل سر الحياة.

- يجب أن تعلموا أن أكثر الموضوعات إثارة الآن في مجال الهندسة الوراثية، هي الدنا المطعم، أي أننا نقص قطعة من دنا جينوم ما، ثم نلصقها بأخرى عن طريق نوع من البروتينات يسمى

إنزيمات التحديد. هذه الطريقة تساعد على عزل الجينات البشرية المفردة الموجودة في الخلايا الجنسية. وبنفس الطريقة يمكن قطع كل كروموسوم بشري، إلى عدد من القطع الدقيقة جداً، ولصقها في عناصر وراثية أخرى، تتضاعف كجزئيات مطعمة في خلايا مضيفة، كالبكتيريا والفيروسات، وبهذه الطريقة يمكن أن نحفظ في الخلايا المضيفة مكتبة كاملة من كل الصفات البشرية.

سألته ذات مرة بتلقائية:

- ما الذي يجعلنا بشراً؟

هز رأسه وهو يضحك ثم أجاب:

- فهمت سؤالك؟ ليس بالطبع نتيجة الاختلافات الجينية وعدد الكروموسومات التي يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات، لكن أيضاً هناك عامل بيئي مهم وهو الصفات المكتسبة من البيئة وطريقة التعامل فيما بيننا.

عدت أسأله من جديد:

- هل يمكن إزالة الفوارق الجينية بين الأفراد، نتيجة ما منحتهم لهم البيئة من مزايا، جعلتهم يتفوقون على أناس يتميزون بالفعل جينياً؟  
أجاب بلهجة حاسمة:

- هذه طبيعة الحياة ولا مفر منها، فلنسا متساوين لا جينياً ولا سلالياً، وعلينا أن نعترف أن هناك بشراً أفضل من غيرهم، لذلك ينبغي أن نساعد البيئة على فرز الأشخاص الأفضل وتجنب الأقل. «التحكم في السلالات البشرية» لتحسين صفات البشر عن طريق

منح السلالات الأكثر صلاحية فرصةً أفضلً للتكاثر السريع، مقارنةً بالسلالات الأقل صلاحية، أي ولادة الصالحين بيولوجيا فقط، وحرمان غير الصالحين من الخروج إلى الحياة. لذلك الأمل كل الأمل في نظام جديد؛ نظام يخلص العالم من كل المنحطين أخلاقياً وبيولوجياً ومنع تكرارهم في المجتمع.

صحت بانفعال غير مقصود :

- عندئذ ستظهر مشكلة أكبر؛ سيزيد التفاوت الطبقي، بوجود فئات قادرة على تحقيق النقاء الجيني كما تقول وفئات لا تستطيع. وسوف ينشأ صراع طبقي جديد. لو فعلنا ذلك سنثير لهيب العنصرية الكامنة فينا منذ الأزل؟ فإننتاج أجيال ملائمة جينياً سيخلق صراعاً قاسياً من أجل البقاء سيؤدي إلى هلاك من لا يصلح وسيادة من يصلح. وبذلك ستتشر الجريمة أكثر مما هي عليه. يجب أن يدرك المجتمع قيمة الفرد لكي نصبح بشراً.

نظر لي دون أن يعقب ثم قال محدثاً بقية الطلبة:

- كما قلت لكم سابقاً لا قيمة للفرد دون السلالة. من الأفضل أن تكمل المحاضرة ونرجئ أي أسئلة أخرى فيما بعد.

بالرغم من الصداقة القوية التي جمعتني بالبروفيسور شنودر، لكنني لم أسترح له، فهناك خلافات عديدة في الرأي نشبت بيننا، لم يكن يزعجه الاختلاف في الرأي بقدر ما كان يزعجني، ولا سيما حين أعلن صراحة، ودون أن يدري تعلقه بالفكر اليوجيني البغيض، بقوله في حديث معي:

- لقد تحولت اليوجينيا من نظرية علمية إلى سياسة وأسلوب حياة ونظام يجب أن يسري على البشر. صحت دون أن أدري مكماً جملته:
- ولذلك اندلعت الحروب «للتخلص» من بعض البشر. صحح جملتي موجهاً حديثه إلى بقية الطلبة:
- تقصد المتخلفين عقلياً، والكثير من الجماعات الهمجية في أفريقيا والهند والصين ووو. والعرب أيضاً، هؤلاء يذاحمون الإنسان اليوجيني الأسمى، ويريضون فوق أراض وفيرة بالثروات لا يستحقونها، هؤلاء البشر يرون في الوليد فماً جديداً، لكنهم لا يرون فيه يدين وقدمين، ينبغي أن تعمل وتنتج، ورأساً يجب أن يفكر. يسكت قليلاً ليلقي جملته كقديس جديد:
- غداً ستصبح اليوجينيا ديناً جديداً وإلها يعبد، وسوف تكرر نفسها لتأكيد أن الناس لم يُخلقوا سواسية، وعندما يتغلب الإنسان على تطوره البيولوجي، سيصبح الكون طوعاً بنانه.
- ثم ينهي محاضرتة قائلاً جملة جالتون الشهيرة:
- «كلاب أفريقيا تكف عن النباح إذا ما تنفست هواءنا»!



(١٣)

## ماندو وبولو

بالرغم من هذا الاختلاف الذي بيننا؛ فلم يتخذ الدكتور «بيتر شنودر» أي موقف مضاد مني، فلم يخف عني معلومة، لم يبخل علي بمرجع أو بحث علمي، كلما وقع أمامه كتاب أو مجلة أو معلومة تتعلق بموضوع البحث وضعها أمامي. الأكثر من ذلك أنه فتح لي أبواب مختبره العلمي على مصراعيه، فأجري بعمل ما يعن لي من تجارب ولكن بشرط أن أعطيه تقريراً مفصلاً بكل ما توصلت إليه من نتائج الأبحاث التي أجريها في مختبره.

واستطعت إجراء تجاربي على عدد من حيوانات التجارب في مركز الدكتور «بيتر شنودر» للأبحاث الجينية كالقردة والقرود. وتعمدت اختيار الأنواع ذات السلوك العدواني، وكان الأكثر شراسة القرد «ماندو» والفأر «بولو»، فالأول اعتاد خطف الطعام والاستئثار به والاعتداء على زملائه من القردة، أما الثاني؛ فكان سريع الحركة، نهماً، يعتدي على أترابه، وعندما وضعنا معه قطاً لم يخف، بل اعتدى عليه وعضه، مما جعل القط يبادر بالهرب إذا رآه، هذا بالإضافة إلى أن لديه ميولاً جنسية لا حد لها، فلا تكفيه فأرة ولا اثنتان ولا ثلاث. كان لا بد لي من فحص ودراسة الخريطة الوراثية لكل من القرد والفأر، للتعرف على طبيعة الجينات الحاملة للصفات الوراثية لهذين

الكائنين، وكانت رفيقتي في عملية البحث «كلارا». مساعدة الدكتور «بيتر شنودر». وضعها في طريقي بحجة مساعدتي في أبحاثي في يوجينيا العنف، كما يقول، وفي الحقيقة لمراقبتي والوقوف على ما أقوم به من أبحاث.

جمعنا مركز الدكتور «بيتر شنودر» للأبحاث الجينية، فتاة شقراء خفيفة الظل، جميلة وجذابة، تشع أنوثة وإغراء، برغم انهاكها في البحث العلمي، عيناها لا تفارقني صباحاً أو مساءً، وتكتب الملاحظات والتقارير أولاً بأول. فإذا أنهكنا العمل ووددنا أن ننال قسطاً من الراحة الذهنية، بتناول فنجان من الشاي أو القهوة في أحد المقاهي، لا تكف عن الحديث عما شاهدته بحماس:

- لا أدري كم أشكرك دكتور ناجي أن أعطيتني هذه الفرصة لمساعدتك في تجاربك على القرد «ماندو» والفأر «بولو». تصور. كلُّ منهما يعانيان من أمراض وراثية لا حصر لها، فبالإضافة إلى العنف والعدوان والشراهة الجنسية، هناك أمراض أخرى قد تؤدي إلى انقراض سلالة بعينها، فمثلاً لاحظت أن هناك ضموراً وراثياً في مخ القرد «ماندو»، ما يعني إمكانية ظهور سلالات ضعيفة في المستقبل.

أقاطعها:

- كلارا. كل هذا قرأته في التقرير الذي تركته وكتبت فيه ملاحظاتك بإسهاب، لقد جئنا هنا لنريح عقولنا قليلاً بعد الإجهاد الذي أصابنا في المركز، أكثر من عشر ساعات ونحن مع القرد

والفأر، حتى أكاد أشعر أنني سأذهب للبيت قفزاً على الأشجار، أو زحفاً داخل الجحور.

تواصل «كلارا» دون أن تزايلها نبرة الحماس:

- بتتبع التاريخ الوراثي لكل من القرد والفأر، تبين أن كلاهما ينحدر من سلالة عريقة في الإجرام والبطش، فأم القرد «ماندو» تسببت في مقتل عدد من القروء في الغابة التي كانت تعيش فيها، نتيجة تكرار الاعتداء عليها وضربها وإلقاء الحجارة عليها واختطاف صغارها والفتك بها، أما الفأر «بولو» فإنه من سلالة أكثر شراسة وعدوانية، فلديه نوع من الهياج الوراثي يدفعه إلى الاعتداء على أبناء جنسه.

أصبح بحدة رغماً عني:

- كلارا. أرجوك، انسي الآن القرد والفأر ودعينا ننتل قسطاً من الراحة. ألم يخبرك أحد في المركز أنك اليوم تبدين أجمل من أي يوم آخر.

تبتسم في إغراء، وتشيح بوجهها بعيداً عني. لم يكن خافياً علي أن «كلارا» كانت تحاول أن تجمع أكبر قدر من المعلومات والنتائج التي أتوصل إليها، لكنني كنت أهادنها وأناورها، فلا أعطي لها إلا بعض القشور، لكنني كنت أخفي عنها معظم النتائج المهمة.

(١٤)

## مساومة

في غمرة بحثي، متوغلاً داخل خلايا القرد والفأر، متتبعاً صفاتهما المتراسة على الشريط الوراثي لكل منهما؛ عثرت على شيء أثار دهشتي واهتمامي، وأخفيته بالطبع عن «كلارا»، ومن ثمَّ عن «شنودر».

امتد منظاري داخل خلايا الفأر، والتقطت عينة دقيقة لا تزيد على مليمترات قليلة، وضعتها تحت المجهر الإلكتروني، وبدأت أراقب ما يدور داخلها. لاحظت وجود حبيبات كثيرة منتشرة في أنحاء الخلية، تتخفى، تتحور، تتخذ أشكالاً متعددة، تبدو هديبية في بعض الأحيان، سرعان ما تتآكل الأهداب وتكتمش لتبدو كروية فتتدحرج داخل الخلية مخلفة مادة شمعية لزجة.

استرعت هذه المادة الغريبة اهتمامي وقد شدني سلوك هذا الجين العجيب وبدأت أتابعه بدأب وشغف دون ملل أو كلل، رحبت أختبر هذه المادة الشمعية حتى وضعت يدي على السر الرهيب.

المادة الشمعية التي تكونت ما هي إلا إنزيم غامض؛ يقوم بانتزاع الأمينات وأكسديتها داخل الهرمونات التي يفرزها الجهاز العصبي في حالات الغضب والانفعال، فتتسارع دقات القلب، وتتوسع الأوعية الدموية وتكبر حدقة العين، وتتمدد العضلات اللاإرادية، كالحجاب

الحاجز من أجل توسيع الرئتين، مما يؤدي إلى حالة من العدوانية والعنف لا مثيل لها .

وبدأت ملامح التجربة الفريدة تلوح لي . ماذا لو تحكمتنا في هذا الإنزيم، بإزالته من على الشريط الوراثي؟ هل يمكن تحويل المجرم إلى رجل مسالم؟ هل يمكن القضاء على الجريمة بكل أشكالها، وتحويل البشر إلى كائنات وديعة راقية؟ أليست هذه ضربة قوية لليوجينيا .

رحت أقلل نسب وجود هذا الإنزيم في هرمونات فئران التجارب، ولا سيّما الأنواع العنيفة منها، فتبدل حالها من العنف إلى الوداعة . في اليوم التالي فوجئت بشنودر يطرح عليّ سؤالاً راح يدق رأسي بعنف؛ وكاد يقوض فكرتي من أساسها، وهو في الحقيقة يتلاعب بذكائي:

- ناجي . من يحدد الصفات المرغوبة وغير المرغوبة فينا؟ وهل هي مرغوبة بالنسبة للقائم بالتجربة أم مرغوبة للكائن الحي نفسه؟ صفة العدوان مثلاً؛ أليست هي نوع من الدفاع عن النفس لمواجهة الأعداء القادمين؟ أليس نزع هذه الصفة قد يحول الكائن الحي إلى كائن خامل ضعيف مستسلم، كذلك الشراهة الجنسية؛ أليست هي ميزة تميز هذا الكائن من غيره، لو نزعنا هذه الصفة، ألا يتحول الكائن الحي، إلى عنصر ضعيف عقيم، غير قادر على الإنجاب؟ ومن ثمّ قد نقضي على التفاوت في القدرات، التي تميز بعض الأفراد دوناً عن الآخرين .

أجبتّه باندفاع الباحث الذي يريد أن يحقق نتائجه رغماً عن كل

شيء:

- التمييز في القدرات لأحد الكائنات لا ينبغي أن يسلب حق الآخرين في الحياة، ولا يبرر العدوان بأي حال من الأحوال. أليست هذه كلماتك عن اليوجينيين الجدد.  
أطرق دون أن يرد.

لكن «كلارا» مساعدة «شنودر» وساعده اليمين، بدأت تدخل لي من باب آخر، لتصل إلى ما توصلت إليه من نتائج. بعد أن فاحت رائحة هذا الإنزيم الغامض المسؤول عن العنف والانفعال، وقد أطلقت عليه «ماو؛ جين المجرمين».

ذات يوم فوجئت بكلارا تقتحم غرفتي، وقد بدت في أبهى صورة، وقد قرأت من بريق عينيها الجذابتين، ونهديها المتألقين، وعطرها الفواح الذي يتضوع أريجته في المكان، نكهة مثيرة طاغية، لا تقل إطلاقاً عن نكهة «الجين ماو»، حركت داخلي أشياء كنت قد كبحت جماحها، فإذا بها تستيقظ مستنفرة، فأمامي أنثى من نوع خاص، لم تكن كلوسي ولا داليا سعفان، ولكن لها سحر غريب. كدت أستجيب لها، لكنني سرعان ما أدركت الطعم الذي يدس لي في سنارة الحرمان، وأيقنت أنها مكلفة من «بيتر شنودر» شخصياً، وربما من هو أكبر من «بيتر شنودر». فتعللت لها بأنني مريض. فتركتني وهي تزوم غيظاً.



وفي خطوة مفاجئة لم يتوقعها أحد رحلت أعلن اكتشافني في مؤتمر صحفي عالمي حضره العديد من الأطباء والباحثين أتوا من كل أنحاء

العالم، وكان من بين الحاضرين البروفيسور «بيتر شنودر». وراح يشد على يدي مهنتاً:

- أحبيك دكتور ناجي على هذا الاكتشاف، لقد سبقت باكتشافك أطباء العالم ومنهم أنا. ولو أنني عاتب عليك لأنك كسرت الاتفاق الذي بيننا.

- شكراً لك بروفيسور شنودر، فلولا اهتمامك بالموضوع وجلساتنا المطولة معا ما توصلت إلى هذه النتيجة. أما عن عنصر المفاجأة، فأنت تعلم جيداً أن البحث العلمي، يتطلب فيه عنصر المفاجأة، ولو تأخر لحظة واحدة لم يعد له قيمة.

ضحك شنودر وقد لمعت جبهته:

- على أي حال. أرجو أن نتعاون معاً في موضوعات قادمة.

- يسعدني ذلك كثيراً متى أردتني فأنا معك في أي أمر.

قلت ذلك وأنا أستعد للانصراف، لكن شنودر أمسك بيدي وهو يقول:

- ها قد جاء الوقت لتؤكد فيه تعاوننا.

- أنا تحت أمرك.

سكت قليلاً كأنه يبحث عن مدخل مناسب لي طرح موضوعه

وأخيراً ألقاها كقنبلة:

- أريد أن أطلع على أبحاثك عن الجين «ماو» جين المجرمين.

نظرت له في دهشة:

- ولماذا هذا الجين بالتحديد؟

صاح بجديّة:

- سأجرى عليه بعض الأبحاث العلمية.



لم أُنم طوال الليل. ظل طلب البروفسور «بيتر شنودر» للحصول على الجين «ماو» يورقني، ما الذي يريده من هذا الجين المتسبب في زيادة العنف والجريمة؟ ترى ما نوع الأبحاث العلمية التي ينوي البروفسور شنودر السير فيها، وأنا صاحب هذا الاكتشاف.

بالرغم أن الوقت تجاوز الثانية صباحاً فإني أسرعرت إلى الهاتف طالباً أستاذي الدكتور فضالي في مصر:

- معذرة أستاذي إذ أطلبك في هذه الساعة المتأخرة، فالأمر لا يحتمل الانتظار أو التأجيل.

وقصصت عليه ما حدث بالتفصيل بيني وبين «شنودر» فوجئت بالدكتور فضالي يقول لي:

- احتفظ بأبحاثك ولا تعطها له على الإطلاق، فقد فعلوا معي الشيء نفسه عندما طلبوا مني مساعدتهم على تصنيع سلاح جرثومي فتاك ينشر مرض الدرن الرئوي في منطقة محددة فيقضي على سكانها. لكنني لم أستجب لهم وأبلغت أجهزة المخابرات. أما بالنسبة لبيتر شنودر فسوف أرسل لك على الإيميل الخاص بك تقريراً، أرجو أن تقرأه جيداً.

بالفعل أرسل الدكتور فضالي على الإيميل تقريراً يرجع تاريخه إلى بداية الألفية الثالثة، يدور التقرير عن تفكير بعض أجهزة المخبرات العالمية في تطوير سلاح بيولوجي جديد في إطار الحرب على الإرهاب. وجاء اسم البروفسور شنودر كأحد الاستشاريين. بعد أن انتهت من قراءة التقرير كتب لي الدكتور فضالي جملة: «توقع أن ثمة مساومة ستطاردك بسبب اكتشافك هذا، فسماسرة الموت يا ناجي ينتشرون في كل مكان، ومتى اشموا خبر اكتشافك، فسيلاحقونك في كل مكان، وربما يقضون عليك، خذ حذرك يا بني.

لذلك قررت بكل حزم رفض عرض البروفسور شنودر، بل رفضت أي تعاون معه. لم يعقب «شنودر» على اعتذاري عن التعاون بيننا، بل ابتسم وهو يهز كتفيه وسار دون أن ينبس ببنت شفة. لذلك قررت إنهاء كل شيء والعودة إلى مصر. بعد خمس سنوات قضيتها في مركز البروفيسور «بيتر شنودر» للأبحاث الجينية، بين مروج الخلية وأفلاكها الشاسعة متجولاً بين شعابها وأحراشها وأزقتها وحواريها، إما متنزهاً على عتبات الميتوكوندريا، وإما سابحاً في سوائها البلازمية، أو مزنوقاً داخل نواتها، محشوراً في جيناتها وكروموسوماتها، منزلقاً على جدائلها المدرجة صاعداً وهابطاً.

كل هذا رأيته بعيني من خلال المجهر الإلكتروني، وكأني أعيش حياة أخرى أعرف تفاصيلها ودقائقها، أو أنني أسير أغوار كهف زمني أحفظه عن ظهر قلب، أدرك خباياه ومجاهله، تعايشت مع أشباحه ومردته، فعرفتهم وعرفوني.

أضعت خمس سنوات متلهيا به، وما أجمله من لهو، إنه لهو الحياة، تعلمت كيف أقسم الشريط الوراثي، وأقطعه وأمزقه إلى أجزاء دقيقة، وكل جزء من هذه الأجزاء يحمل صفة ما، فماذا لو بدلنا صفة مكان أخرى، وأزلنا جيناً ولصقنا آخر؟ بمرور الوقت صارت لدي متواليات من صفات لا حصر لها تحمل تفاصيل الإنسان على مر العصور. واكتشفت أن السنوات الخمس التي أضعتها، كسبت مقابلها عقوداً كثيرة، وضعتني على أعتاب المستقبل. وأهم ما كسبته هو الجين ماو؛ جين المجرمين.

(١٥)

## «نيللي فؤاد»

عدت من رحلتي حاملاً شهادتيّ دكتوراه، إحداهما في الحقوق والأخرى في الطب. استقبلني والدي في المطار بحفاوة لم أعتدها، وأعجاب لم أره من قبل، وابتسامه غيرت من ملامحه القاسية التي عرفتة بها، عانقني بحنان وهو يقول بصوت مؤثر:

- مبارك يا دكتور ناجي لقد رفعت رأسي.

قلت له وأنا أستقل السيارة بجانبه:

- أما زلت مصرّاً على أن أتقدم للنيابة العامة؟

صاح دون أن ينظر إلي:

- لك حرية الاختيار؟

كدت أبكي؟ يبدو أننا نحتاج إلى وقت طويل لكي نفهم أنفسنا، فلقد انتزعتُ حرية الاختيار انتزاعاً دون أن أقوم بزرعها داخل خلاياي. ورحت أضم أُمي الحبيبة ولم أستطع أن أنتزع نفسي من حضنها، فخمس سنوات غياب كانت بالنسبة لي موأناً، فأجهشتُ وأنا أقول:

- لقد عدت من أجل أن أصنع لك عالماً وردياً يليق بك.

أما البروفسور فضالي فكان الأكثر سعادة، ومضى يثني على

أبحاثي ويقول:

- كنت أتابعك يا دكتور ناجي لحظة بلحظة، وسعدت كثيراً عندما أخبرتني في رسائلك بتجاربك حول «اليوجينيا»، ولا سيما اكتشافك المهم للجين «ماو». أفضل شيء فعلته أنك عدت في الوقت المناسب، لو تأخرت يوماً واحداً، كانت المساومة ستأخذ شكلاً آخر. على أية حال يمكنك استكمال أبحاثك هنا، وسيكون مركز الدكتور فضالي تحت تصرفك لتجري عليه أبحاثك كما تشاء.

ضممته بود وأنا أقول:

- هذا شرف كبير يا دكتور، ويسعدني أن تكون نقطة الانطلاق لأبحاث اليوجينيا من مركز الدكتور فضالي للأبحاث الجينية.



مركز الدكتور فضالي للأبحاث الجينية. مركز صغير يقع في منطقة غير مأهولة بمدينة المقطم، ظلت أتأمله وكأني في متحف أثري، مكتبات ضمت كتباً نادرة، جهاز ميكروسكوب وعدداً من أجهزة الكمبيوتر، معمل صغير حوى العديد من الزجاجات والشرائح والأنابيب، هي نتاج بحثه ودأبه طوال سني عمره.

غير أن وجهاً انضم إلينا أخيراً، لفت انتباهي للوهلة الأولى، كأني رأيته من قبل، ولدهشتي وجدت صاحبه تحدثني قائلة:

- ناجي. «ناجي خلوصي»؟

- أجل. لكن كيف عرفتني؟

- أنا «نيللي فؤاد»؛ زميلتك بقسم الوراثة بكلية العلوم. وزميلتك

في مركز الدكتور فضالي. أنسيتي؟

نعم تذكرتها، فقد تغيرت كثيراً عما رأيتها قبل سفري، فتسع سنوات زادوها أنوثة وارتواء، ومع ذلك فهي كعادتها جادة، ودؤوبة، تعطي اهتماماً للبحث العلمي أكثر من أي شيء، حصلت على الماجستير ثم الدكتوراه، وما زالت مهتمة بقضية المرأة التي حدثتني فيها قبل سفري، حتى إن موضوعها للدكتوراه كان «العنف ضد المرأة بين الانتخاب الطبيعي واليوحينيا». وكان هذا سبباً في توطيد العلاقة بيننا.

تضحك وتلقي النكات وتجري في مرح. لكن بمجرد دخولنا معمل الدكتور فضالي؛ فهي راهبة في كنيسة أو دير، والتجربة التي أمامنا أشبه بقداس تتخلله تراتيل نورانية. وكأنني أعرف عليها للمرة الأولى. فتاة نشطة نهمة للمعرفة، تفهم ما أريده من نظرة عين وقيل أن أتفوه به. انجذبت إليها، وصارت بيننا صداقة راحت تنمو يوماً بعد يوم.



كان هناك موضوع واحد يشغل الناس في كل مكان، حوادث القتل البشع التي زادت بشكل كبير في الآونة الأخيرة، جرائم لا يتوقعها أحد وليس هناك مبرر واحد لحدوثها، صديق يقتل صديقه ويمثل بجثته ويأكل كبده، أب يقتل جميع أبنائه، ثم يقتل نفسه، فتاة تقتل أمها بمساعدة عشيقها. وكان السؤال الذي يتردد في ذهني دائماً؛ هل هناك مثير ما أثر في البشر، وجعلهم يتجهون إلى العنف.

وفي أثناء متابعتي لخلية بكتيرية على شاشة المجهر، اقتربت مني

نيللي وهي تسألني:

- ألم تعثر بعد على متطوع لإجراء تجربتك عليه؟

أجبتها دون أن أنظر إليها :

- ما أصعب العثور على متطوع يقبل إجراء تجربة من هذا النوع، والأصعب أن تتوافق صفاته مع شروط إجراء هذه التجربة، سواء على المستوى الفردي أم المستوى الجماعي، فلا بد أن تكون لدى هذا الشخص صفات تميزه من الآخرين، ورثها عن أسلافه، وفي الوقت نفسه يجب أن يكون من مجتمع يشترك تقريباً في الصفات نفسها .

ابتسمت برقة وهي تسأل:

- هل هناك مشكلة لو أخبرتني بما تنوي عمله بالضبط؟

- بالرغم من السرية التي تحيط بهذا البحث بالذات، سأخبرك باختصار . كل ما يتعلق بهذا البحث جين يطلق عليه «ماو»، هذا الجين مسؤول عن حالات الانفعال والعصبية المفرطة، والهياج الزائد الذي يصيب بعض الكائنات ومنها البشر بطبيعة الحال، لذلك يطلقون عليه «جين المجرمين»، سأقصُّ هذا الجين من الشريط الوراثي للعينة، وأراقب تصرفاتها بعد ذلك، حتى نقضي على الجريمة بكل أشكالها .

- هل تسمح لي أن أصحبك في بحثك هذا أيضاً؟

- بالطبع فأنت شريكتي في كل شيء .

(١٦)

## مستشفى السجن

كنت كالغواص؛ الذي اعتاد الغوص في المحيط، بحثاً عن لؤلؤة فيروزية مختبئة داخل محارة أرجوانية. قادتني قدمي إلى أماكن كثيرة؛ من أحياء شعبية قديمة، حوت عناصر مختلفة من البشر، متعددة الأنماط والصفات، لمناطق عشوائية؛ تم الاستيلاء عليها بواسطة الأهالي من عدة عقود، ويمارسون نوعاً من البلطجة، لمستشفيات عامة وخاصة التقيت فيها أنواعاً من المرضى ما بين حالات طفيفة، إلى حالات خطيرة ميؤوس منها، لن تؤثر فيهم إجراء مثل هذه التجربة، فلن تبطل الموت، ولن تعجل الرحيل. ومع ذلك لم أجد واحداً اقتنع بفكرة الخضوع لتجربة كهذه، أو حتى الاستسلام لسن إبرة يشك بها جسده. حتى أصابني اليأس والإحباط.

كانت رفيقتي في عملية البحث «نيللي فؤاد»، فاقتربت منها أكثر، وتعرفت عليها من جديد. فتاة رائعة في كل شيء، راحت تفكر معي في هذا المتطوع الخفي الذي سأجري تجربتي عليه. ولأنها كانت تجري تجاربها للدكتوراه، داخل مستشفى السجن، فقد اقترحت علي أن تتوسط لي للعمل كطبيب داخل المستشفى وقالت لي:

- ستجد في المستشفى النماذج التي تبحث عنها.

وبفضل «نيللي فؤاد» تم تعييني داخل مستشفى السجن، كطبيب متخصص في الأمراض الوبائية، ولا سيما بعد أن قدمت لهم شهادات الماجستير والدكتوراه التي حصلت عليها من أكبر جامعات العالم.

ووجدتها فرصة سانحة أن أكمل أبحاثي على بعض المساجين الذين كانوا يتوافدون على المستشفى للعلاج، حتى توصلت إلى نتائج غير متوقعة. بتحليل عينة من دم بعض المساجين تبين أن المساجين الذين يقضون عقوبة الأشغال الشاقة المؤبدة نتيجة ارتكابهم جرائم قتل، تحتوي جيناتهم على خلل في جين «ماو»، بينما الآخرون الذين يقضون عقوبة مخففة نتيجة ارتكابهم جرائم جنح أو قتل خطأ، لا يحتوي الشريط الوراثي لديهم على هذا الخلل في جين «ماو». وكانت «نيللي» هي ذراعي اليمين في إجراء هذه التجارب. كل هذا أسهم في توطيد العلاقة بيني وبين «نيللي فؤاد».

جمعتنا أنا ونيللي أماكن كثيرة، من نواد، لمقاه، لمطاعم، لحدائق عامة، فضلاً عن لقائنا اليومي بمركز الدكتور فضالي، التي تكون فيه مختلفة، كأنها فتاة أخرى غير تلك التي تلهو وترمح بحرية. تحدثنا في موضوعات كثيرة من الخلية الحية، بمكوناتها الدقيقة والشريط الوراثي الحلزوني، بما يخبئه من أسرار، إلى العالم بأسره، والحياة بما يعتمل فيها من أفراح وأشجان، بدا واضحاً أن شيئاً لذيذاً ساحراً ينبض في قلوبنا، وكأنه جين جديد يحمل صفات خاصة انطبعت بيننا، لكن كلانا لم يجرؤ على الاعتراف أو التصريح به.

فأنا مشغول بالبحث عن سألجري عليه تجربة انتزاع الجين «ماو»،  
 وقلبي متعلق بجين الحب المتوهج، فيدفع بي في طريق ضبابي لا أرى  
 له نهاية. لذلك لم أجد الوقت أو الرغبة للدخول في علاقة من أي نوع.  
 و«نيللي فؤاد»؛ الموضوع الأزلي الذي يشغلها هو «حرية المرأة»،  
 ولا سيما المرأة الشرقية، التي تظل طيلة حياتها في خدمة زوجها  
 وبيتها حتى الممات، وعليها أن تتحمل مكرهه نزواته ومغامراته،  
 لذلك كانت ترى مثلي أننا كبشر نتاج صفات وراثية ورثناها عن  
 أجداد عنصريين وهمجيين في الوقت نفسه، فكانت متحمسة أكثر  
 مني لمشروع الجينوم البشري، ومحاولة تغيير بعض الصفات الوراثية  
 للأجيال القادمة، لخلق جيل مثالي. بدلاً من القضاء على أجيال  
 كاملة كما ينادي اليوجينيون.

ذات يوم فوجئتُ بها تخرجني من شرودي مداعبة:

- هيبه، فيم شردت يا صديقي؟

انتبهت ولم أسترحّ لكلمة صديقي التي نطقت بها، وكأنها تحدد  
 طبيعة العلاقة التي بيننا، لكنني ابتسمت قائلاً:

- لم أشرد. أنا معك بعقلي ووجداني وكياني كله.

انتهزت الفرصة لتعرض علي مشروعاً رهيباً ترددت كثيراً قبل

البوح به:

- إذن ستكون من المؤسسين.

- مؤسسين؟

- أجل لقد حان الوقت لإشهار نادي تحرير المرأة.

- أليس من الأفضل لو كان نادي تحرير الإنسان .

نظرت لي وهي تقول بيقين خفي:

- لو تحررت المرأة سيتحرر الإنسان .

نظرت لها ملياً متأملاً ملامح وجهها ذات اللون الوردى، وعينيها المتألفتين، وشفتيها الناعمتين في سكون جاذب، ثم قلت لها :

- لدي مشروع أفضل .

- ما هو؟

- نتزوج .

فاجأها اقتراحي، ظلت مطرقة بعض الوقت، وقد تجهم وجهها، ثم التقطت حقيبتها وانصرفت دون أن تبس ببنت شفة .

أدهشني تصرفها، ظللت طوال الليل أفكر، ما الذي قلته أغضبها إلى هذه الدرجة؟ وإذا كانت لا ترغب في الزواج فلتصرح وينتهي الأمر . وقررت أن أواجهها لأعرف سر تغييرها المفاجئ .

في اليوم التالي عادت «نيللي فؤاد» متجهمة على غير عاداتها، فلم تعد تضحك في مرح كما كانت، تتحدث معي بشكل رسمي وتتعمد أن تتناديني «دكتور ناجي». اقتربت منها وقطعت فترة الصمت التي احتوتنا :

- نيللي. ما الخطأ الذي ارتكبته . هل تنكرين أن بيننا عاطفةً ما؟

هزت رأسها وقالت بصوت مختنق:

- أنا لا أنكر هذه العاطفة، لقد أيقظتني بعرضك هذا وأنا لا أستطيع

أن أتخلى عن مبادئ وأفكاري. فالزواج يجعل المرأة بالنسبة للرجل جسداً فقط، وأنا لا يمكن أن أكون جسداً لأي رجل، يمثل دائماً لتحقيق رغباته ومتعته الجنسية، ثم لا يلبث أن ينسحق هذا الجسد في قيود تقضي على أحلامه، من إنجاب لرضاعة ثم تربية حتى تشيخ المرأة وتذبل وتموت، وفي المقابل يحصل الرجل على حرياته كاملة، ثم يبحث عن المزيد، وهو في سبيله إلى ذلك يحقق اسماً ومجداً وشهرةً ويعيش إلى الأبد، أين العدالة إذن. إن حرية المرأة واستقلالها في الحياة والبحث والوجود تقتل بالزواج، والعلاقة بين الرجل والمرأة هي قيد دائم يزداد يوماً بعد يوم. لأنني لو فعلت ذلك لفقدتُ حريتي إلى الأبد، وعندئذ لن أتمكن من استعادتها ثانية.

- بالرغم من اختلافي معك، فإنني أحترم عقلك، فلنحتفظ بصداقتنا إلى حين.

(١٧)

## نادي تحرير المرأة

لم تضيع «نيللي فؤاد» وقتاً، ففي خلال أيام قلائل كان «نادي تحرير المرأة» يشغل حيز الوجود، واختارت له مكاناً متميزاً وسط المدينة، واتخذت كل الإجراءات القانونية من أجل إنشاء هذا النادي، الذي ينادي بتحرير المرأة من كل ما يهدد استقلاليتها.

كان حفل الافتتاح مهيباً، فقد تبرع أحد الأثرياء من معارف «نيللي فؤاد»، لإقامته في قصره المقام على الطريق الصحراوي في أطراف العاصمة، وطبعت له دعوات فخمة، كنت في البداية لا آخذ موضوع النادي على محمل الجد، حتى ذهبت معها إلى حفل الافتتاح في قصر هذا الثري. لم تبلغني نيللي من هو ولا صلته بها، دخلنا من الباب؛ فعزفت الموسيقى عزفاً خاصاً أشبه بموسيقا عصر الباروك، ثم تقدمنا رجل يبدو كفرسان العصور الوسطى، لتتسلمنا قاعة واسعة تملأت فيها الثريات، وكأننا دخلنا مجرة حفلت بالنجوم الساطعة في كل مكان، ليست في السقف فقط، وإنما على الجدران أيضاً، ما إن دخلنا حتى ضجت القاعة بالتصفيق، وراح أحد الحاضرين يقدمنا للجمهور:

- دكتورة «نيللي فؤاد»؛ رئيسة نادي تحرير المرأة، وضييفها الدكتور «ناجي خلوصي»، فليتقدما لافتتاح الحفل.

اتخذت «نيللي فؤاد» مكانها على المنصة، وبدأت ندوتها بعنوان «الجنس كعائق أمام حرية المرأة واستقلاليتها». ثم دعنتي نيللي للحديث، فتحدثت عن «اليوجينيا»، ونظرية الانتخاب الطبيعي، وكيف تستخدم كإحدى وسائل القتل الجماعي والتعذيب الجيني، التي يجب أن تحرم دولياً.

عندما انتهيت صفق الحضور وبدأ حفل العشاء، لم يكن حفلاً عادياً بل أسطورياً، وبعد العشاء دارت الموسيقى وبدأ الرقص، بينما وقف مطرب يغني غناء أشبه بالأوبرالي، وفوجئت بنيللي تأخذني من يدي وهي تصيح:

- هيا نرقص.

قلت لها:

- لا أعرف.

ردت ضاحكة:

- وهل أنا من يعرف.

في أثناء الرقص لفت انتباهي شيء غريب، شيء لم تره عيني من قبل ولا أعرف ما هو، شيء تصدر القاعة الرئيسية التي نرقص فيها وبطول الجدار، فرجار ومسطرة يشكلان معا زاوية قائمة، فتحة الفرجار متعامدة على الزاوية القائمة، وفي الوسط حرف (G) كايبتال.

وعندما درت مع نيللي دورة كاملة، وجدت في الجهة الموازية للجدار، رسماً لهرم غير مكتمل، فوّه برزت عين واحدة يخرج

منها أشعة كأشعة الشمس، ماذا تعني هذه الأشياء وما علاقتها  
بتحرير المرأة؟

سألت نيللي بصوت خفيض:

- هل هذه الرسومات التي فوق الجدران تعني لك شيئاً؟

هزت كتفيها وواصلت الرقص دون أن ترد. دارت رأسي في المكان،  
وشعرت بالاختناق وتمنيت أن أنصرف، في هذه اللحظة اقترب مني  
الرجل الذي قدّمنا وسألني:

- دكتور «ناجي خلوصي»؟

- أفندم.

- نريدك في الطابق العلوي للأهمية.

نظرت إلى نيللي وأنا أهرز كتفي، وعندما عرضت نيللي أن تصحبني؛  
فوجئت بالرجل يقول:

- معذرة. الدكتور ناجي وحده.

صعدت إلى الطابق العلوي، وأنا أشعر في قرارة نفسي أنني دخلت  
بيتاً للأشباح، في أثناء صعودنا رأيت رسماً لنجوم متناثرة، ثم لقدم  
ومنجل، لا أدري ما علاقتها بالحفل الذي دعينا إليه، ولا بتحرير  
المرأة، لتتسلمنا قاعة أصغر بقليل من القاعة السفلية، يتوسطها  
صالون عبارة عن مقعد فوتي كبير بين مقعدين صغيرين. على  
المقعد الكبير ترنحت فتاة في إعياء، تبدو جميلة بالرغم من الذبول  
والشحوب الذي على وجهها، تتنفس بصعوبة، وقد شممت في المكان  
رائحة نفاذة تشبه البخور المعتمق، تداخلت معها روائح معطرة، لم

تستطع أن تخفي الرائحة الأصلية نهائياً. أمام الفتاة وقف الرجل الثري صاحب القصر، بوجهه الأرستقراطي المشرب بحمرة، وجبهته العاجية اللامعة وعينيه الزرقاوين. ما إن رآني حتى صاح:

- معذرة يا دكتور. ابنتي أسرفت في الشراب فحدث لها إجهاد مفاجئ. هل يمكن أن تفعل معها شيئاً؟  
اقتربت منها ثم قلت محدثاً إياهم:

- أرجو أن تبتعدوا عنها حتى تستطيع أن تتنفس.

كانت الفتاة ترتدي فستاناً أبيض وعلقت سلسلة تدلت منها عين متسعة تشبه كثيراً العين التي على الجدران. حاولت أن أفعل لها تنفساً صناعياً بالضغط على ظهرها عدة مرات. كانت تنظر لي بوجل نظرات مضطربة، وعرق كثيف على جبهتها. بالكشف المبدئي تبين أن الرئة لديها لا تعمل بشكل طبيعي، وقد فقدت القدرة على التمدد والانكماش، وكأنها جفت من السائل الرئوي، ما أكد ذلك ازورواق الشفاه، وعدم القدرة على التنفس، والضعف الشديد في ضربات القلب. قلت وأنا أوجه كلامي للثري:

- لديها أزمة رئوية حادة. يجب أن تنقل إلى المستشفى حالاً.

بدا الارتباك على وجه الرجل وأسرع يقول:

- تمام. تمام. سننقلها نحن إلى المستشفى الخاص لدينا.

رحت أقول مؤكداً:

- يجب أن تنقل في عربة إسعاف مجهزة. وتدخل غرفة العناية المركزة، فالنبض ضعيف جداً والحالة خطيرة. ولحين وصول عربة

الإسعاف، يمكن إعطاؤها دواء يساعد على توسيع الشعب الهوائية، وفي علاج ضيق التنفس.

- مفهوم مفهوم. أعتقد أنه موجود هنا. شكرا لك يا دكتور. مع السلامة.

عندما استدرت لمغادرة القاعة إلى أسفل، استرعت انتباهي على الجدار المقابل، لوحة عليها صورة لفتاة ترتدي نفس الفستان الذي ترتديه الفتاة، وفي رقبتها ذات السلسلة التي تنتهي بالعين، وتتخذ نفس وضعية الجلوس على المقعد.

(١٨)

## سر الأسرار

عدت واجماً من الحفل، بينما مضت «نيल्ली فؤاد» تحدثني عن روعة الحفل، ونجاح الندوة، والشخصيات التي حضرت، وكيف وجدت الندوة صدى واسعاً، وبُثَّتْ مقاطعها على وسائل التواصل الاجتماعي، ثم سألتني فجأة:

- ماذا كانوا يريدون منك؟

لم أطلعها على ملاحظاتي وشكوكي فقلت لها:

- كنت أجري كشفاً طبياً على ابنتهم.

ثم مرت مدة صمت قطعتها بسؤالي:

- لكن من هؤلاء وكيف تعرفت عليهم؟ وما دورهم بالنسبة لنادي

تحرير المرأة حتى يقيموا حفلاً كهذا؟

ضحكت معقبة:

- لن تصدقني لو قلت لك إنني لا أعرفهم البتة، وليس لهم أي

دور في النادي، كل ما هنالك أن زميلنا المطرب «حازم فريد» الذي

كان معنا في الجامعة، اقترح علي أن يكون الاحتفال الأول للنادي في

فيلا «وهدان بيه». ذلك الرجل الذي رأيت، يبدو أنه من نسل إقطاعي

الفترة الملكية، وما زال يحتفظ بملامحهم نفسها.

عدت إلى البيت؛ وتفصيل الأشياء التي رأيتها على الجدران العالية المتسعة، ترتسم في فراغ حجرتي الضيقة، وعلى الجدران والسقف، بل راحت تتخذ حركات كرتونية أشبه بالفوتوشوب، فرأيت فرجاراً يجري على الجدران، ثم يتوقف على الزاوية القائمة لمسطرة المعماري. رأيت العين الواحدة تتأرجح أمام عيني، وبؤبؤها ينظر في كل اتجاه، رأيت الهرم الناقص يترنح ويتخذ وضعاً مقلوباً، رأيت المطرقة تنطلق من ركن الحجرة نحو رأسي. وأخيراً وجه الفتاة وأنفاسها البطيئة، ارتسمت أمامي على الجدار مفتوحة العينين. حتى شعرت بالخوف فغطيت وجهي ونمت.

استيقظت متأخراً عن مواعيدي. كنت أشعر بصداق رهيب لا أدري لماذا؟ هل مما رأيت داخل القصر الغامض، أم من هذه الأفكار الوهمية التي شغلت بها عقلي، وعقلي مشغول أصلاً بمن سأجري عليه تجربتي دون أن أعثر عليه.

امتدت يدي إلى هاتفي المحمول، لأعرف من اتصل بي ومن تراسل معي، وفي أثناء تجوالي على صفحة الفيس بوك، لفت انتباهي خبر جعل الدماء تصعد إلى رأسي، واقتشعر له بدني.

«فتاة تلقى حتفها من على سفح المقطم»، أسفل الخبر كانت صورتها. هي الفتاة نفسها التي رأيتها في القصر الملعون، بوجهها الذابل الشاحب وملابسها البيضاء، وقد ظهرت في الصورة العين الواسعة المعلقة في سلسلة الرقبة. ورحت أقرأ تفاصيل الخبر بأنفاس لاهثة، «حيث أكد شاهد عيان، أنه في أثناء عودته ليلاً في طريق

المقطم، فوجئ بسيارة تأتي مسرعة من الطريق المقابل، وتخرج عن الطريق، وتسقط أسفل المنحدر. وأبلغ الرجل عن الحادث. عندما وصل رجال المباحث إلى السيارة، اكتشفوا أن بداخلها امرأة في نهاية العقد الثالث من عمرها، كانت قد فارقت الحياة. وبتفتيش المكان عُثر على الحقيبة الشخصية للضحية، واسمها «شاهنדה إمام». تعمل يوتيوبر لدى أحد المواقع الإلكترونية، وقد أمر العميد «سراج عسل» رئيس المباحث، بانتشال السيارة، والبحث عن أية أدلة تفيد التحقيق، كما أخذت عينة من دم الضحية، وحُلِّلت في المختبر، للتأكد من وجود مواد مخدرة في الدم من عدمه؛ وهو ما سيبين سبب الوفاة. وقد نُقلت الجثة إلى مشرحة زينهم.

لا أدري ماذا أفعل؟ هل أحدث «نيلي»؟ وما يدريني فقد تكون «نيلي» معهم؟ ظلت صورة الفتاة تلاحقني، وكلما حاولت طردها من مخيلتي، اقتحمت خلوتي، واستقرتني، لكي أنال ممن قتلوها. وأحسست أن جثة الفتاة ترقد بجانبني على الفراش، ورأيت ملامحها بارزة في الوسادة. بلا شك الأمر فيه جريمة، وأنا حائر بين الاعتراف والسكوت، فأنا آخر من شاهد الفتاة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، حتى «نيلي» لم يسمحوا لها بالصعود للطابق الثاني ورؤيتها.

ارتديت ملابسني على عجل، وأطلقت لسيارتي العنان، في اتجاه المستشفى الذي سيتم فيه تشريح الجثة، كنت بحاجة للاطلاع على تقرير الطبيب الشرعي. وكما توقعت كان هناك بوليس ونيابة، وأهل الفتاة في انتظار تسلم الجثة، وشاهدت والدتها في حالة انهيار وقد ارتمت في أحضان إحدى القريبات وهي تجهش:

- يا حبيبتي يا بنتي، لم تكن تكل ولا تهدأ، من أجل تأمين حياتنا، فمند طلاقى من أبيها وهي تحمل مسؤولية البيت.  
 لحسن حظي حضرت جانباً من التحقيق مع والدتها، فقد اقترب منها المحقق مستأذنا:

- معذرة يا سيدتي. أريد أن أسألك بعض الأسئلة.

أطرقت الأم المكلومة دون أن ترد، فبادر المحقق بسؤالها:

- هل كانت ابنتك معتادة السهر بالخارج حتى هذه الساعة المتأخرة؟

- أحياناً، عندما يكون لديها عمل صحفي؟

- هل أخبرتك بالمكان الذي سوف تذهب إليه بالأمس؟

- لا. لم تخبرني بتفاصيل عملها، ولا المكان الذي ستذهب إليه بالتحديد. لأنها لا تقوم بعمل تحقيق واحد، فهي تتحرك من مكان لمكان، حسب ظروف عملها.

- كيف كانت أحوالها في الأيام الأخيرة التي سبقت الحادث؟

- كانت عادية، أحياناً تبدو مرهقة بسبب انهماكها في العمل، لكن هذا أمر طبيعي.

- هل تسلّمت جميع متعلقاتها الشخصية؟

- أجل حقيبتها الشخصية التي تحوي هويتها، والرخصة، وكارنيه العمل بالصحافة.

تجهش الأم بانفعال فيتركها المحقق وهو يقول:

- سنتوقف عند هذا الحد وربما نستدعيك في الأيام القادمة لاستكمال التحقيق.

يبدو أنها تذكرت شيئاً فراحت تقول:

- من فضلك. لا أجد ضمن المتعلقات، المفكرة الخاصة بابنتي، كانت دائماً ترافقها أينما ذهبت، وتكتب فيها بعض التفاصيل المتعلقة بالموضوع الذي تغطيه.

- هل يمكن وصف هذه المفكرة؟

- أجندة متوسطة الحجم ذات لون فيروزي.

- سأبلغ الأمر لرجال المباحث للبحث عنها اطمئني.

أسرعت إلى الداخل، بالرغم من أنني واثق من أن الصورة المنشورة على الفيس بوك للفتاة، فكنت أريد أن أتأكد بنفسي. لحسن الحظ وجدت طبيباً بالمستشفى كان يدرس معنا في السنة الأولى بكلية العلوم، قبل أن يعيد الثانوية العامة لتحسين المجموع، ويدخل الطب بعد ذلك ويصير طبيباً، لا أدري إن كان سيتذكرني أم لا؟ فعرفته بنفسي، لم يتذكر، لكنه رحب بي وعرض علي خدماته:

- أية خدمة يمكنني القيام بها يا دكتور؟

- هما خدمتان وليست خدمة واحدة.

ابتسم وعقب قائلاً:

- تحت أمرك لو كان باستطاعتي.

- أولاً أريد الاطلاع على تقرير الطبيب الشرعي.

هز رأسه موافقاً:

- بسيطة، ولو أن الأمر أصبح الآن في يد النيابة لأن التحقيقات لم تنته بعد. لكن توجد صورة يمكنك الاطلاع عليها. والخدمة الثانية؟

سكت قليلاً ثم حدثته بصوت خفيض:

- صورة من تحليل الدم. وعينة من النسيج الخلوي للرئة.

انقلب وجهه من الابتسام إلى التعجب إلى العبوس ثم استدار مولياً

لي ظهره:

- بهذا تصبح ثلاث خدمات وليست خدمتين، لكن الأمر ليس

بالبساطة التي تتصورها، فالصفة التشريحية لجثة الفتاة؛ أثبتت أن

الوفاة نتيجة إصابات متعددة في جهات مختلفة من الجسم، بسبب

خروج السيارة عن الطريق، وانقلابها عدة مرات، وليست هناك أية شبهة

جنائية، وأنها لم تكن تعاني من أية أمراض وبائية أو فيروسية، لكن

تحليل الدم أثبت أنها كانت تتعاطى المواد المخدرة؛ لكن ليست بكميات

كبيرة، وها هو تقرير الطبيب الشرعي يمكنك أن تقرأ ما جاء به.

جرت عيني على تقرير الطبيب الشرعي سريعاً «الوفاة نتيجة

هبوط حاد بالدورة الدموية بسبب قوة التصادم وحدث نزيف حاد».

ثم أعدت له التقرير وأنا أوضح له:

- الأمر ليس له علاقة على الإطلاق بالفتاة، وما إذا كان وراء موتها

جريمة أم لا، كل ما هنالك أنني أقوم ببعض الأبحاث العلمية على

النسيج الخلوي للرئة، ولن أنسى جميلك هذا يا دكتور، فالفتاة رحمها

الله سيوارى جسدها التراب ليأكله الدود، فليس أقل من أن يستفاد

بنطفة صغيرة من الرئة للبحث العلمي.

هز رأسه وهو يقول:

- تعال معي يا دكتور.

دخلت معه غرفة التشريح، ويا له من مشهد لم أكن أود أن أقف فيه، فها هي الفتاة التي كنت أفحصها بالأمس جثة هامدة لا حياة فيها، بوجهها الجميل وقد اكتسى سباتاً مهيباً، وقد سكنت العين الكحيلة في لحاظها. لكنني لوهلة شعرت كأنها تنظر لي متوسلة أن أبحث عن أودوا بحياتها.

أخذت غنيمتي، واحتفظت بها داخل قارورة خاصة، وانطلقت إلى معمل الدكتور فضالي للأبحاث العلمية، وكأني أحمل معي سر الأسرار. انتحيت جانباً داخل المعمل دون أن أطلع أحداً بسري، ولا حتى الدكتور فضالي، وبدأت بتحليل العينة النسيجية المأخوذة من رئة الفتاة، بينما عيني تفحص في شاشة المجهر الإلكتروني لترى ما خفي، العينة تظهر أن الرئة كانت في حالة تليف كامل، والشعيرات الدموية مسدودة تماماً، بسبب نقص السائل الرئوي، نتيجة تسلسل فيروس غريب إلى الرئة انتشر سريعاً، وأتلف الرئة بشكل كامل، وهذا ليس له علاقة بالحادث.

بمتابعة الفيروس؛ كان فيروساً غريباً، يختلف عن كل الفيروسات التي تصيب الرئة، معظم الفيروسات الرئوية عسوية الشكل، بينما هذا الفيروس اتخذ شكل كرة على سطحها أهداب تلتصق بالرئة، وتقضي عليها في ساعات. الفيروس لديه القدرة على التوغل داخل الخلايا ونقل ما يحمله من صفات وراثية على الجينات الوراثية للجسم. هذا الفيروس هو مبتغاي ومقصدي.

شعرت برغبة عارمة لم أستطع منعها لزيارة هذا القصر مرة أخرى. وتذكرت «حازم فريد»، كان يهوى الغناء ونحن في الجامعة، خاصة الغناء الأوبرالي، أعتقد أنني استمعت إليه مرة أو مرتين، لا بد أن أقالبه، اتصلت بنيللي وطلبت منها رقم هاتف «حازم»، بحجة أنني رشحته لأحد أصدقائي، لإحياء حفل زواج شقيقته. أعطتني الرقم فاتصلت به وطلبت لقاءه.

على مقهى في وسط المدينة جلست أنا و«حازم فريد»، شاب طويل ونحيف، أكثر ما شدني فيه عيناه، تبدو زائغة ينظر في كل اتجاه وكأنه مراقب، معظم كلامه همس، أو بصوت خفيض، شعره مهوش كيرلي، تاركاً شاربياً كثافاً يلتقي من طرفيه بلحية صغيرة نافرة، لم أذكر له على الإطلاق رغبتني في زيارة القصر، ولا ما شاهدته فيه، كل حديثي عن صوته وروعته وأدائه، وأنه سيكون له مستقبل باهر في عالم الغناء، وأنني بالفعل رشحته للغناء في حفل صديق لي، وسوف يقومون بالاتصال به قريباً. مضى «حازم» يحدثني عن الفرص التي أضاعها، والتي لو كان استغلها لأصبح كروان مصر الثاني، بعد عبد الحليم حافظ، وأنه أضاع فرصة في عمل فيلم سينمائي غنائي، بسبب الجامعة والمحاضرات وأبجد هوز. وشعرت أن الحديث عن القصر قد ذهب بعيداً، فقلت له:

- لكنني أنصحك أن تبتعد قليلاً عن الغناء الأوبرالي، فليس له جمهور ولا سمعية، حاول أن تغني مثلما يغني شباب هذه الأيام.

قطب ما بين حاجبيه، وارتسمت على جانبي فمه ابتسامة ساخرة،

وصاح:

- أوبرالي. أنا لا أغني أوبرالي على الإطلاق.
- لكنني سمعتك في بيت «وهدان بيه» وأنت تغني أوبرالي.
- انفجر ضاحكاً ثم قال:
- هذه كانت حفلة خاصة، وأديتها حسبما طلبوا إليّ، لكن كل أغنياتى حديثة وشبابية.
- انتهزت الفرصة لأسأله:
- ألن تغني هناك قريباً؟
- نعم الليلة يوجد حفل هناك وسأغني.
- قلتها في شبه إلحاح:
- بودي أن أسمعك.
- بدا التردد عليه وأطرق قليلاً، ثم قال:
- لكن من الصعوبة الدخول هناك دون دعوة.
- أليست معك دعوة إضافية.
- هز رأسه ثم قال:
- على أية حال لا تحمل همّاً . سأجعلك تدخل دون أن يلحظ أحد ولكن بشرط.
- أي شرط؟
- ستدخل متنكراً.
- متنكراً؟

- أجل حفلة اليوم تنكرية، أنا ذات نفسي سأغني معصوب العينين.
- بسيطة سأشتري قناعاً يخفي وجهي.
- الشرط الثاني أن تعرف كلمة السر، انقرها على لوحة المفاتيح التي على الباب، وسيفتح لك على الفور.
- وما كلمة السر؟
- يسكت طويلاً، ويدور بعينه حوله ليتأكد أن أحداً لم يسمعه، ثم همس بها في أذني:  
- رينبو.

(١٩)

## قوس قزح

كنت أقترّب بسيارتي من القصر الغامض، فبدا من بعيد كقلعة حصينة فوق تبة، أو قصر من قصور ألف ليلة وليلة، على أبوابه وقف رجال أشداء يحملون مسدساتهم، راحوا يتحركون ذهاباً إياباً وهم يتلفتون يمنة ويسرة.

رحت أطوف حول القصر، لأعرف مداخله وأبوابه وارتفاع أسواره وعدد حراسه، فعرفت أن له خمسة مداخل غير البوابة الرئيسية التي تتحرك إلكترونياً، وقدرت ارتفاع السور والأبواب بأربعة أمتار على الأقل، يشغل القصر ثلث المساحة فقط، وباقي المساحة حديقة واسعة وارفة الأشجار، ولا سيما أشجار «السرو» العملاقة، التي تحيط بالحديقة من أطرافها، فبدت كحُرَّاسٍ مَرَدَّةٍ أشد شراسة من حاملي المسدسات.

كانت تنطلق من داخل القصر الصواريخ والألعاب النارية، لتتفجر في السماء صناعة أشكالاً متنوعة، بينما أحاط القصر من أعلى أقواس قوس قزح بألوانها السبعة المعروفة، وبدأت الموسيقى تصدح من الداخل، حين اقتربت من القصر متخفياً في شكل خفاش «بات مان» الشهير في أفلام الكرتون. عندما وصلت؛ كان الباب مغلقاً، وعلى واجهته توجد أرقام وحروف كالتي أمام المصاعد لتحديد

الطوابق، فأدركت أن هذه لكتابة كلمة السر، فإما تكون صحيحة ويفتح لي الباب للدخول، أو خاطئة ولا أدري ما الذي سيحدث حينئذٍ. ضغطت على حروف كلمة «rainbow» بالإنجليزية، ومعناها «قوس قزح»، فانفتح الباب ودخلت.

استقبلتني القاعة نفسها التي دخلت منها، حين كنت مع «نيللي فؤاد»، ولم يكن الدخول يومئذٍ بكلمة السر، فهل اتبعوا هذا التقليد باستخدام كلمة السر عند الدخول من أجلي؟ توجد بعض التغييرات في القاعة، في ترتيب الموائد والمقاعد، وكان أكثر الموجودين من الشباب والمراهقين، بالرغم من الوجوه المستعارة التي ارتدوها، فلم تخف أعمارهم الحقيقية، خاصة الرقص والصياح مع موسيقا وغناء «حازم فريد»، الذي وقف مع فرقته يعزف ويغني معصوب العينين مثلهم، بجانبه فتاة معصوبة العينين مثله، ترتدي فستاناً لامعاً أسود وبلا حمالات، كشف عن نهدين بدوا كحمامتين توشكان أن تطيرا، بينما انحسر من أسفل عن ساقين عاريتين مخروطتين. لفت انتباهي أعلى الفرقة الموسيقية، رسم الفرجار المتعامد على الزاوية القائمة وفي وسطه حرف G، وكأنه يقول لي أنا الوحيد الباقي هنا.

كان «حازم» يغني بصوته الأوبرالي، بعض الأغنيات الأجنبية التي تبدو مألوفة لي، ووجدتني دون أن أدري أردد معه بعض كلمات الأغنية التي يقول مطلعها: «حين تتحطم السماء وينهار العالم سوف نلتقي أنا وأنت، فخذني إلى جنك»، بعد أن انتهى حازم من غناء المقطع، كانت المغنية شبه العارية، تغني على اللحن نفسه كلمات استنتجت منها جملة واحدة تقول: «أواه. إبليس، إنني أعيش على الخطيئة من أجلك». فتضج القاعة بالصراخ والصياح، ويرددون معهما.

انتبهت على صوت أنثوي رقيق يقطر عذوبة يحدثني بمرح:

- مرحباً سيد بات مان، هل تسمح لي أن أصحبك.

وطالعتني وجه جميل لفتاة لا تزيد على الثامنة عشرة، لكنها مكتملة الأنوثة والحيوية، لم تكن بحاجة إلى قناع يخفي جمالها، بل ربما تكون الوحيدة التي بلا قناع، فقد برقت عيناها الزرقاوان ببريق خاطف، وافتر ثغرها الدقيق عن ابتسامة جاذبة، وبرز من قمم فستانها الضيق القصير نهدان لطيفان، جعلوا الدماء تندفع إلى رأسي دفعة واحدة. عندما لمحت انبهاري بها غمزت بعينيها وهي تقول بصوت خفيض:

- إذن أنت لي الليلة، هيا معي.

سألتها جازعاً بصوت مرتعش وقد جف حلقي:

- إلى أين؟

أطلقت ضحكة رنانة وهي تقول بدلل:

- إلى أعلى قوس قزح.

كنا نرتقي درجاً ملتويًا، ومع كل درجة؛ كنت أرى أشعة قوس قزح التي أعلى القصر، تخترق النوافذ، وتلقي بظلالها على الجدران، فترسم خطوطاً متوازية تكسر الرسومات المعلقة على الجدران لتعطيها أشكالاً جديدة، فاللون الأحمر شق الفرجار المتعامد على الزاوية القائمة نصفين، ليتحول إلى فرجارين؛ الأعلى برأس والأدنى بلا رأس. اللون البرتقالي انعكس على حرف ال G في الوسط، فحواله إلى كتلة ملتوية، أما الهرم الناقص فقد حطمه الشعاعان الأصفر والأخضر وأصبح مشوهاً، والأزرق انعكس على العين التي أعلى الهرم،

فبذت عمياء وقد اختفى بؤبؤها . أما الشعاعان النيلي والبنفسجي، فأخفيا القدوم والمنجل، وكل ما بقي من رسوم على الجدران العلوية، إذ إننا وصلنا إلى الطابق العلوي، حيث الإضاءة خافتة، لا يبدو منها سوى بصيص، وكلما تقدمنا تلتصق بي الفتاة أكثر، ثم فجأة تعلقت بي طوقت رقبتني بذراعيها، وأدنت شفيتها من شفتي، وغبنا في قبلة عميقة استسلمت لها، وبدأ خدرها يسري في أوصالي.

انفتح أمامنا باب، فإذا بنا في قاعة فسيحة خافتة الإضاءة، يتصاعد منها بخور ذو رائحة نفاذة، له خدر أصاب رأسي بتتميل غريب؛ وذكرني بتلك الرائحة التي شممتها في أثناء إجراء الكشف على الفتاة القتيلة قبل يومين.

واستطعت أن أرى على أرضية القاعة، شبحاً لرجل في الخمسين من عمره، يرتدي سروالاً أبيض مفتوحاً من أعلى، تحيط به فتيات شبه عاريات، عندما دققت البصر وجدته هو نفسه «وهدان بك»، يبدو مخموراً ثملاً، وفي أركان من القاعة، انتشرت مجموعة من الشباب والفتيات، يمارسون الجنس علانية، وبشكل جماعي، تتصاعد أصواتهم الشبقة وآهاتهم المثيرة.

لم أصدق ما رأيته بعيني، وكأنني في حلم أو كابوس، أو أنني دخلت دون أن أدري، موقعاً يعرض أفلام البورنو حسب تقنية «ميتا فيرس»، بدأت الفتاة التي معي تقترب مني، وهي تغمض عينيها في تبثل محاولة إثارتي، لم أكن أراها ولا أشعر بها، وكأن فوبيا العري التي كانت تراودني قديماً، قد عادت لي بعد أن شفيت منها . ويبدو أنها لاحظت انصرافي عنها فراحت تقول بهمس، حتى لا تفقد انتشاءها :

- شمر ذراعك سأعطيك حقنة ستجعلك وحشاً .  
كانت قد أخرجت الحقنة من حقيبتها، فالتقطتها منها وأنا أقول:  
- أفضل أن أخذها بنفسى.

صاحت:

- لا تخف إن يدي خفيفة، وأنا متعودة ضرب الحقنة .  
- الحقيقة أنني أحتاج دخول دورة المياه، وسوف آخذ الحقنة  
هناك.

غمزت بعينها وهي تقول في توسل:

- لا تتأخر أنا في الانتظار.

أسرعت إلى دورة المياه، وقد وضعت الحقنة في جيبي، وتعمدت  
المكوث بعض الوقت، ثم تسللت محاولاً الاختفاء عن عيني الفتاة،  
وهبطت الدرج إلى الباب الخارجي، ولا أعرف كيف استقلت سيارتي  
وانطلقت بها، بينما كانت رائحة البخور الخانق تتغلغل داخلي، وشعرت  
بالاختناق، فمددت يدي لأنزع قناع «بات مان» الذي فوق وجهي، فلم  
أجده، هل سقط في القصر؟ أم وقع في دورة المياه؟ بالتأكيد عرفوني.  
وصلت إلى البيت في حالة يرثى لها، كنت أترنح، أشعر بالغثيان  
والدوار، وداخلني شعور أن أشخاصاً معي في المنزل، بل في حجرتي  
نفسها، أنفاس تهمس في أذني، عيون تنظر لي كعيون البومة  
المفتوحة على الجدران. لكن شيئاً لفت انتباهي جعل دقات قلبي  
تتسارع، وعقلي كاد يقف من هول ما رأيت، لقد فوجئت بقناع «الرجل  
الخفاش» فوق الوسادة.

(٢٠)

## يوجينيا

ظلت وقائع تلك الليلة ماثلة أمامي، ينقبض لها صدري وترتعد من هولها فرائصي. عقلي لا يصدق ما رأته عيني، تتكرر المشاهد بالترتيب نفسه، ومعها تنعكس العلامات والرموز. في هذا المكان الذي وجدت فيه الفتاة ليلة مصرعها، تعقد حفلات جنس جماعي. هل كانت الفتاة تمارس معهم، وحدث ما جعلها تغيب عن الوعي؟ وما نوع هذا البخور الغريب الخانق، الذي ما زال يتغلغل في أعماقي، ليزكم أنفي ويضيق صدري، بالرغم مما يحتويه من زيوت طيارة وعطور نفاذة، فرائحة الجلد المحترق والعظم المتفحم هي الطاغية، وما الذي جاء بقناع الرجل الخفاش الذي كنت أرتديه لدى دخولي القصر، على وسادتي في غرفة نومي. هل هي رسالة من أصحاب القصر يريدون أن يقولوا لي عرفناك وعرفنا بيتك وسوف نأتي بك متى أردناك؟

أسئلة كثيرة راحت تناوشني كالسهم المسنونة. وتذكرت حقنة الفتاة فأخرجتها سريعاً من جيبي ورحت أفحصها، كنت أظنها حقنة هرمون «التستوستيرون»، التي يساعد على الشعور بالنشاط والطاقة، ويدعم الأداء الجنسي، ويحسن الحالة المزاجية بشكل عام، يبدو أنها أشبه بتذكرة الدخول إلى حفل الجنس الجماعي. لكن بعد

تحليل مكوناتها تبين أنها تحتوي على الإنزيم الذي أبحث عنه؛ إنزيم المجرمين، «ماو» الرهيب. هل أعطيت الفتاة «شاهنده» هذا الجين؟ في أثناء ذلك؛ كنت أتابع عن كثب تحريات النياية، حول حادث انقلاب السيارة أعلى جبل المقطم، فرحت أتردد على العميد «سراج عسل» رئيس المباحث، بصفتي محامياً مهتماً بالقضية، فنشأت بيننا صداقة، وكثيراً ما كنا نتبادل أطراف الحديث حول الحادث، واحتمالات أن يكون هناك جانٍ وراء الجريمة، فأخبرني أنه فَحَصَ السيارة، لكنهم لم يتوصلوا إلى وجود خلل فني، يكون قد أدى إلى وقوع الحادث. لكن من خلال فحص الوسادة الهوائية للسيارة، تبين أنها انفجرت وتطايرت منها بعض الأجزاء، أما الإطارات الأمامية للسيارة فقد تفتتت تماماً. لذلك كُتِفَ البحث عن مفكرة شاهنده، فربما تزيل بعضاً من غموض الحادث، وتكشف عن وجود جريمة. فأمرت الشرطة بإعادة تفتيش السيارة، كما أعيد مسح المكان الذي وقع فيه الحادث. لكن لم يتم العثور على أي شيء. وصارت المفكرة حديث الرأي العام وكذلك مواقع التواصل الاجتماعي التي اتخذت من مفكرة شاهنده المفقودة مادة لجذب الانتباه وتحقيق أعلى الترنادات.

في اليوم الرابع وفي أثناء حديثي مع العميد سراج؛ قفزت إلى رأسي فكرة تفكيك كراسي السيارة، فقد تكون المفكرة علقّت في جهة ما من أرضية السيارة. نهض العميد مسرعاً وأمر بتفكيك مقاعد السيارة، وما كاد رجال الشرطة يرفعون الكرسي الأمامي، حتى ظهر كيس من الجلد معلق أسفل الكرسي، وبداخله كانت المفكرة.

لم تكن المفكرة تحتوي على أسرار خاصة ذات قيمة، سوى بعض الموضوعات التي قامت الصحفية بتغطيتها، والشخصيات التي ستُجري حوارات معهم، وعناوين الأماكن التي ستذهب إليها، ومنها قصر «وهدان بك»، بعد عدة صفحات ذكرت شاهنדה علاقتها بـ«وهدان بك»، منذ دعوتها إلى قصره، وبالطبع تحدثت عن القصر من الداخل، ثم راحت تصف «وهدان بك» بالساحر وتصرفاته الغريبة، وفي صفحات تالية مضت «شاهنדה» تتحدث عن حالة من الحب المستحيل، وشعورها بالانجذاب نحو اللامعقول والخرافة، مع كتابة بعض الأبيات عن العشق، ثم في صفحة أخرى تتحدث عن حالتها النفسية، وشعورها بالضياع الذي استولى على قلبها وعقلها، مع عدم قدرتها عن البوح، ثم في صفحة تالية ذكرت كيف استسلمت له ولجسده، وكأنها واقعة تحت تأثير مخدر، وفي صفحة تالية راحت تعبر بسطور قليلة عن شعورها بالأسى والحسرة بسبب علمها بإصابتها بمرض خطير. ولم تزد المفكرة على ذلك سوى دائرة كتب داخلها اسم «إسماعيل خليل الوتار». من يكون إسماعيل خليل الوتار هذا؟ وما علاقته بالفتاة القتيلة؟

رحت أقص على العميد سراج، ما حدث معي في قصر «الوهدان»، وكيف التقيت الصحفية «شاهنדה إمام» ليلة الحادث، والحالة التي كانت عليها، ولأمني العميد لأنني لم أبلغ حينئذٍ، وأمر رجاله باستدعاء «وهدان بك»، لكنهم لم يجدوا أحداً بالقصر، وعلموا أن «وهدان بك» غادر البلاد.

عدت إلى البيت وأنا أشعر بالإعياء الشديد . كأنني أصبت بمرض خطير، لا أقوى على ترك الفراش، لدرجة أنني تخلفت عن ذهابي إلى معمل الدكتور فضالي، وأبلغت المستشفى بمنحي إجازة مرضية، ثم أغلقت هاتفي.

لليوم السابع وأنا سجين غرفتي، ليس لدي رغبة للخروج منها إلا للضرورة، حتى الطعام فقدت أي رغبة فيه، أنظر إلى وجهي في المرآة، وجه ذابل، عينان باهتتان، فكرة الموت تسيطر علي بشكل كبير. وتذكرت الفتاة القتيلة والفيروس الذي التقطته من رثتيها. هذا الفيروس يحمل داخله السر.

كنت أحتفظ بالفيروس داخل محلول خاص، وفي وسط ملائم ذات درجة حرارة مناسبة، حتى صار لدي مزرعة كاملة من الفيروس وبدأت أجري عليه تجاربي. كان فيروساً غريباً سريع التكاثر بالمقارنة بغيره من الفيروسات الأخرى. لديه القدرة على التحور والتشكل والانتقال من وسط إلى آخر والتعايش معه. يمتصُّ السوائل داخل الوسط، فإذا كانت رئة يمتصُّ السائل البلوري الذي يساعد الرئة على التمدد والانبساط، فيصيبها بالتليف في ساعات قلائل، فإذا وصل إلى الكبد يصيبه بالتلف التام في مدة وجيزة، كذلك الكلى والأمعاء والمخ، حتى يقضي على حياة الإنسان في غضون يومين. فيروس قاتل لا مثيل له. وبواسطة إنزيمات القص واللصق؛ نزعت الصفة البوابية عن هذا الفيروس، وحملته بالصفات المرغوبة، وبمجرد دخوله على الجسم ينشر الصفات الجديدة محل الصفات القديمة غير المرغوب فيها. أطلقت عليه اسم «يوجينيا». وبقي أن أجرِّبه على الإنسان.

انتبهت فجأة على طرق متواصل على الباب. ترى هل أصحاب القصر جاؤوا للانتقام مني، بعد أن عرفت عنهم ما لا ينبغي معرفته؟ وتذكرت أنهم ليسوا بحاجة إلى طرق الباب، فقد دخلوا البيت بدون مفتاح، وتركوا لي قناعاً فوق الوسادة. ظل الطارق اللوح يدق الجرس ويخبط الباب بيده وأقدامه ورأسه، حتى خشيت أن يهدم البيت فوقي.

قمت متناقلاً إلى الباب. فتحتة لأجد أمامي «نيللي فؤاد». ما إن رأنتني حتى أجهشت وهي تصيح:

- لو لم تفتح الآن لكنت أبلغت الشرطة. ما هذا الذي تفعله بنفسك، أسبوعان ولا أراك ولا ترد على الهاتف. كدت أجن. نظرت لها ملياً وتداعيات الليلة المشؤومة تتوارد على ذهني، وعلى لساني سؤال قبيح أحاول مداراته والإمساك عنه، وأخيراً سألتها مراعيًا بعض التحفظ:

- «نيللي». هل كنت تشتركين في الحفلات الخاصة التي يجريها السيد «وهدان» في قصره؟

نظرت لي بعينين ملؤها الدموع، وراحت تقول بصوت متحشرح:  
- فهمتك يا «ناجي». فأنا لم أكن أعلم بما يدور بالقصر من حفلات ماجنة وأحداث غريبة، إلا بعد حفل افتتاح نادي تحرير المرأة الذي دعوتك إليه لتكون معي، ولم أفارقك فيه لحظة، سوى اللحظات التي تركتني أنت فيها وصعدت إلى أعلى. من وقتها إلى الحين لم أذهب إلى هناك، ولم أشارك في أي احتفال لا في قصر «وهدان بك» ولا غيره.

نظرت لها معذراً:

- أنا آسف.

مسحت دموعها وراحت تقترب مني:

- أرجو أن تنسى ذلك القصر الملعون كأنه لم يكن. وتعود لتفكر في مشروعك وتجربتك.

- مشروعى. تجربتي؟ أشعر كأن الصداً قد أصاب همتي، فلم تعد لدي رغبة في عمل أي شيء، ثم أين أنا بهذا المغامر الذي سيقبل إجراء تجربة كهذه عليه؟

عندئذ تناولت يدي وصاحت مازحة:

- من أجل هذا جئت إليك. دع كل ما بيدك وهيا معي.

- إلى أين؟

- عثرت على من تبحث عنه.

- من يكون؟

ظلت تنتظر لي بعض الوقت دون أن تنبس لتتلاعب بأعصابي وأخيراً نطقت:

- الوتار.

كنت أنطلق بسيارتي، بينما راحت «نيللي فؤاد» تقص علي قصة «الوتار»، الذي وقع مؤخراً في يد قوات الشرطة، بعد سلسلة من عمليات القتل الوحشي التي أجراها على عدد من الضحايا بطرق منظمة وغريبة، وبمجرد إلقاء القبض عليه اعترف بجرائمه، ومن بينها تورطه في مقتل الصحفية «شاهنده إمام».

(٢١)

## الوتار

لم أكن قد رأيت سفاحاً من قبل، وطوال الطريق إلى المستشفى رححت أرسم له صورة في ذهني، رأس أصلع، جسد ضخم، عيون متسعة، نظرات قاسية، حاجبان كثيفان مائلان، شفاه غليظة.

ازدادت دهشتي حين وقعت عيني عليه وهو ممدد في الفراش، بعد إصابته في أثناء القبض عليه، جسد طويل نحيل، شعر غزير مستو غطى جبهته، عيون حالمة وديعة، شارب دقيق، ولحية صغيرة خفيفة. أبسط وصف يمكن أن يطلق عليه «المعجاني». ماذا جرى لسفاحي هذه الأيام؟ هل تخلوا عن الملامح القاسية الحادة وارتدوا ملامح الرقة والوداعة لينافسوا نجوم هوليوود وجاناتهم؟ وكيف يقدم مثل هذا الجسد النحيل على ارتكاب جميع جرائم القتل والذبح والخنق هذه؟ بينما لو نفخته إحدى ضحاياه نفخة واحدة، لطار الوتار في الهواء.

سألته وأنا أغرز في ذراعه حقنة لم يشعر بألمها من شدة الآلام التي يشعر بها في أنحاء جسده:

- ما تهمتك؟

أجابني بمرارة:

- تهمتي إنسان. أشعر بما يشعر به البؤساء، وأغني غناء البسطاء.

وأحلم أحلام الضعفاء.

- ألا تشتك من شيء معين، صداع، زكام، مغص؟  
ضحك بسخرية:
- أنت أدرى مني بالآمي يا طبيب السجن.  
سألته بلهجة المحقق لا الطبيب:
- ما الذي دفعك للإقدام على ارتكاب هذه الجرائم كلها وشكلك يبدو لي مهذباً؟  
تردد قليلاً ثم تحدث بصوت هادئ يشوبه لهاث متقطع:
- لقد اعترفت وأدليت بأقوالي في التحقيقات، إذا كانوا كلفوك انتزاع أقوال جديدة مني، فأرجو أن توفر مجهودك.  
أدريت وجهي منه وأنا أقول له:
- أخطأت التقدير يا «إسماعيل»، فأنا لست موكلاً من أي جهة للتحقيق معك أو لانتزاع اعترافات، ثم إن أخبارك تملأ الجرائد وصفحات التواصل الاجتماعي، كما أنني لا أتحدث معك بصفتي طبيباً، بل بصفتي صديقاً جمعت الظروف بيننا في مكان واحد، فأنا الطبيب المسؤول عنك طوال فترة إقامتك بالمستشفى ألسنت بحاجة إلى صديق، ولو لبعض الوقت؟  
ضحك بسخرية وهو يعقب:
- صديق الآن؟ لا أعتقد أن إنساناً مثلي يصلح صديقاً لأي شخص، وستعجب لو قلت لك إن من دفعني في هذا الطريق من البداية صديق، لكنني على أية حال أرحب بصداقتك؛ ولو أنني أعلم أنها صداقة لن تدوم طويلاً.

أنهيت حديثي معه بقولي:

- أتركك لتستريح الآن، وسوف تكون بيننا أحاديث كثيرة فيما بعد .  
ثم طلبت من «نيللي» سحب عينة من دم «إسماعيل» وتركت حجرته، بينما عقلي يستعيد كلماته معي كلمة كلمة، «لا أعتقد أن إنساناً مثلي يصلح صديقاً لأي شخص، ستتعجب لو قلت لك إن من دفعني في هذا الطريق من البداية صديق».

وقر داخلي شعور بأن «إسماعيل خليل الوتار»، هو الشخص المناسب لإجراء التجربة عليه.



توطدت العلاقة سريعاً بيني وبين «إسماعيل الوتار»، بالرغم من تحذير العميد «سراج عسل» بأن أكون على حذر في التعامل معه، ولا سيماً أنه دموي يميل إلى العنف، ما طمأنني أن إصابته لا تسمح له بالتحرك بشكل كبير، علاوة على إعطائه بعض الأدوية التي تعمل كمثبطات للقلق والعنف الانفعالي، وكثيراً ما كنا نقطع الوقت في الحديث عن هواياته واهتماماته وذكريات الطفولة والصبا وحبه الأول، متحاشياً قدر الإمكان التطرق للجريمة وأسباب قيامه بها، حتى أكسب ثقته، وهذا ما نجحت فيه، فقد وثق بي تماماً وراح يحدثني عن طفولته بين أبوين حنونين لم يحرماه هو وإخوته من أي شيء، وأنه كان متفوقاً في دراسته، ووجدتني أسأله فجأة دون أن أدري:

- كيف لطالب متفوق مثلك يصبح . .

وأمسكت عن الكلام فأطرق قليلاً قبل أن يقول:

- تقصد يصبح قاتلاً؟

- أنا آسف. يمكننا التوقف عن الحديث عند هذا الحد.

واصل حديثه قائلاً:

- لا أبدأ. لك أن تتخيل هذا الإنسان الذي يرقد أمامك لا يقوى على ذبح دجاجة، ودائماً أميل إلى الهدوء، لا أحب الضجيج أو الانفصال. ظلت حياتي على هذا المنوال حتى تعرفت على «أدهم»؛ صديقي، أو هكذا بدا لي؛ هو رجل أعمال ناجح، التقينا في أحد المعارض، وكنت حينئذ أبحث عن عمل، فوعدني أن يجد لي وظيفة في شركته، بالفعل أوجد لي عملاً في العلاقات العامة، وبدأ يقربني منه شيئاً فشيئاً، حتى اكتشفت بمرور الوقت أن التي تدير الشركة هي زوجته، فهي تمتلك أكثر من ثلاثة أرباعها، واكتشفت أيضاً أن زوجته لم تكن راضية عن عملي بالشركة، لكن «أدهم» كان يهادنها ويروضها بأسلوبه الخاص، هو ساحر لا شك في هذا، له تأثير عجيب، وله عينان عميقتان، وصوت رخيم بأسرك، فتتركه وأنت مخدر، إذا جلس معك فلا بد أن يقنعك بأفكاره حتى ولو كانت خطأ، مثلما أقتعني بمشاركته تعاطي حقن المورفين، منذ ذلك الحين استطاع أن يطوئني تحت جناحيه. فكنت أتبعه كظله في أي مكان يذهب إليه، ومن الأماكن التي اعتدنا زيارتها «قصر الوهدان».

يسكت «إسماعيل الوتار» قليلاً ليستجمع أفكاره، ثم واصل بصوت

متحشرج، وراح يهمس بوله العاشق المتيّم:

- في هذا القصر تعرفت على «شاهنדה». من عرفني بها هو

«أدهم» نفسه، دعاني ذات ليلة لسهرة لا تنسى على حد قوله. في بيت «وهدان بك». رجل من الأثرياء، كل شيء كان مباحاً، الطعام والشراب والجنس حتى الصباح، وقبل حفل الجنس يجب أن تخضع لحفل المخدر، حقن المورفين لا تشعر بشكة إبرتها من فرط اللذة، بعدها تشعر بطاقة غريبة لا تحدثها الحقن الأخرى، ثم تنتقل من فتاة لأخرى بلا كلل. وكانت «شاهنده» من الفتيات اللاتي من نصيبي. قدمها لي «أدهم» كصحفية تقوم بعمل بعض التحقيقات الجريئة، وصححت هي قائلة «معدرة «أدهم بك» أنا لا أقوم بعمل موضوعات جريئة، وإنما أكشف الحقائق». ضحك «أدهم» وهو يقول مازحاً: «غلطنا في البخاري»، وتركها لي لا أدري إن كان عن تعمد أو عفواً، لأنني منذ تلك الليلة أصبحت أسيرها. لا أدري كيف أحببتها دوناً عن الجميع، حب بلا أمل أو رجاء. كنت أتتبعها أينما ذهبت، أرقبها وهي تتهادى بعودها الممشوق كغادة هيفاء وشعرها الأسود الناعم ينسدل خلفها في انسيابية فتَهفو نفسي ويخفق قلبي. ومع ذلك كانت تنهرني وتصدني كلما حاولت الاقتراب منها. فحتى ذلك الحين لم تكن «شاهنده» تشارك في حفلات «وهدان بك». لكنني مع تردي على قصر «الوهدان»، شعرت أن شيئاً في يتغير، أصبحت عصبياً أكثر من ذي قبل، أثور لأتفه الأسباب، وكنت أبرر ذلك بسبب صدود «شاهنده» لي وتمنعها علي. حتى ارتكبت أول جريمة.

سألته بشغف:

- كيف حدث ذلك؟

ينفخ في ضيق ثم يسترسل:

- ذات يوم؛ فوجئت باتصال من زوجة «أدهم»، تستدعيني في بيتها لتستفسر عن بعض الأمور، لم يكن أحد معها بالمنزل، وبمجرد وصولي راحت تصب علي جام غضبها، متهمة إياي بأنني أحاول التفريق بينها وبين زوجها، للوصول إلى ما أربو إليه، وأنها لن تسمح لي بذلك، حاولت تهدئتها، أخبرتها أنني على استعداد لترك الشركة على الفور، لكنها كانت في حالة أشبه بالجنون، ما بين السب والشتم والتهديد والوعيد، لم أحتمل دفعتها بقوة بعيداً عني، فوجئت بها تمسك سكيناً، توجهت بها نحوي، أمسكت يدها التي تحمل السكين، سقطت السكين من يدها، التقطت السكين من على الأرض، أمسكت بها، لم أدر بما أفعله، كأنني في منام ثقيل أو كابوس رهيب، يدي ماسكة بالسكين، تطعن بلا وعي، منظر الدماء وهي تندفع كالنافورات يزيديني انتشاء. أفقت والدماء تملأ المكان بشكل رهيب، تركت البيت والدماء تتعكس في عيني في الطرقات، وجوه الناس، حتى السحب في السماء بدت في عيني حمراء، وبت ليلتي قاتلاً ومقتولاً، دون أن أجد مبرراً واحداً لما حدث.

عندما انتهت كان يلهث بشدة، يلتقط أنفاسه بصعوبة، فسألته:

- ألم تفكر في تسليم نفسك وتخبرهم أنك كنت في حالة دفاع عن النفس؟

ضحك بسخرية:

- كان اللون الأحمر القاني قد بدل حالي، أصبحت شهوة القتل

تسيطر علي أكثر من شهوة الحياة، وتكونت داخلي رغبة خفية لتكرار الشيء نفسه بدم بارد، ودون أن يشعر أحد، وبدأت أبحث عن الضحية الجديدة.

سألته وقد زاد شغفي لمعرفة السر:

- تقصد أن الضحايا التاليين لم تكن تعرفهم؟

أخذ نفساً عميقاً وراح يقول:

- لا لم أكن أعرفهم على الإطلاق، شعور غامض كان يدفعني بإلحاح غريب لتعقب الضحية، والإجهاز عليها خنقاً أو طعنًا حسب ما تيسر الظروف. حدث هذا مع كل الضحايا إلا مع الضحية الأخيرة. «شاهنده إمام». بعد كل جريمة كنت أشعر أن الهوة بيني وبينها تزداد اتساعاً، وأنا أحمل على كاهلي آثام البشرية، هل يمكن لفتاة مثل «شاهنده» أن تحب قاتلاً سفاحاً، يومئذٍ شعرت بالندم على كل ما اقترفته من ذنوب. حاولت أن أمنع نفسي عن ارتكاب جرائم جديدة، لكن القاتل اللوح الرابض بداخلي كان يلاحقني ويلاحقها أينما ذهبت، حتى قررت أن تكون «شاهنده» ملهمتي وضحتي في نفس الوقت، لا أدري أين ذهبت في ذلك اليوم، ظللت أبحث عنها في كل مكان دون جدوى، وأخيراً عثرت عليها في بيت «وهدان» بك، لا أدري هل شيطاني هو من قادني إليها أم قدرها هو الذي ساقها إلي؟

- كيف؟

- في الليلة الأخيرة عندما التقينا في قصر «الوهدان»، رأيت فتاة أخرى غير «شاهنده» الحادة العصية، فوجئت بها وقد تخلت عن

صدودها ونفورها، تتحدث بأريحية ولطف غير معتاد، تمزح وتمرح وتضحك وتشرب حتى الشمال، وهي التي لم تكن تقرب الخمر، ولماً سألتها عن هذا التغير المفاجئ؛ أجابت بغنج «المرأة لا تستطيع أن تخفي مشاعرها طول الوقت، واللييلة بالذات أحتاج إليك»، ثم سحبتني من يدي وهي تترنح في مجون، وقادتني إلى إحدى غرف القصر. قضينا ليلة بعمرنا كله، رحنا نهتك ستر الليل بتنهاتنا الشبقة، كانت تتأود وتضطرم كالبركان، بينما استولت علي حالة من الجنون لم أمر بها من قبل، جسد طاش صوابه، لم يعد يفرق بين العشق والافتراس، ولا بين العناق والخناق، ولا بين القبل والالتهام، وهذه الصرخات التي تأتي من تحتي أهي صيحات شبق أم أصوات استغاثة، لا لم نعد ذكراً وأنثى، بل ضُبعاً وفريسة. لا أدري كيف تخلصت من انقضاضي، دفعتني وهي تتأوه في إعياء. بينما ارتديت ملابسني وأنا أزمجر في لهاث. عندما خرجت أخبرتني إحدى الفتيات أن «شاهدة» متعبة وتريد سيارتها أمام بوابة القصر الداخلية، أسرع يا حضار السيارة من الجراج، وقبل أن أقودها في اتجاه القصر وقعت مفكرتها في يدي، ودفعتني فضولي إلى تقلب صفحاتها، وعلمت أنها طوال الفترة الماضية كانت تحقنني بمادة مخدرة تحملني على ارتكاب الجرائم بلا وعي. هي التي جعلت مني قاتلاً.

وانفجر «إسماعيل» في انفعال هستيري وراح يصيح:

- جن جنوني. ما جعل الدماء تصعد إلى رأسي، والغضب يعمي بصيرتي أنني قرأت في مفكرتها تلك العبارة. «مسكين إسماعيل. كان يعتقد أننا عشيقان، لم يكن يعلم أنني على موعد مع ضحية

جديدة في بيت «وهدان بك» غداً، وليذهب العالم كله إلى الجحيم». لم أدر ماذا أفعل، تركت السيارة وقطعت أنبوب زيت الفرامل، وأعطبت الوسادة الهوائية بحيث تنفجر وهي على الطريق، ثم غرزت عدداً من المسامير داخل العجلات، وتركزت السيارة أمام الباب. ورحت أراقبها وهي تقود سيارتها وتتطلق بها بسرعة رهيبة، وقد فقدت القدرة على التحكم فيها، كنت خلفها أتبعها بسيارتي وشاهدت لحظة انفجار الوسادة الهوائية فاخلت عجلة القيادة في يدها وانحرفت عن الطريق إلى أن هوت من أعلى الجبل.

يسكت قليلاً وهو يجهش:

- أقسم لك يا دكتور إنني ذرفت عليها الدموع وأنا أشاهد سيارتها تسقط من أعلى المقطم.

انهار إسماعيل فجأة وتسلمته تشنجات هستيرية، أسرعت بإعطائه حقنة مهدئة، وتركته وخرجت عائداً إلى حجرتي بالمستشفى.

(٢٢)

## ماو ماو

عندما وصلت إلى معمل الدكتور «فضالي»، كان في انتظاري مفاجأتان؛ لا مفاجأة واحدة. الأولى أن تقرير تحليل العينة المأخوذة من دم «إسماعيل الوتار»، أثبت خللاً في الجين «ماو»، بحيث يعمل على إفراز كمية كبيرة من الأدرينالين، تجعله متوحشاً سفاكاً للدماغ. أما المفاجأة الثانية، فقد جاء في التقرير أن هذا الخلل في الجين ليس وراثياً، أي ليس موجوداً منذ مولده، وإنما اكتسب منذ مدة قريبة، عن طريق لصق إنزيم معين، من شأنه إحداث خلل ما بالنقص أو الزيادة على جين «ماو». معنى هذا أنه قد أجري لـ «إسماعيل الوتار» تعديل جيني، لتحويله من إنسان طبيعي مسالم، إلى قاتل سفاح شره للدماغ. كنت أقرأ التقرير؛ بينما يجلس قبالي الدكتور فضالي، يطالع نسخة من التقرير، ثم عقب:

- هناك أربعة أنواع من جينات «ماو» ترتبط بالسلوك الإجرامي؛ الجينات التي تتكون في أثناء الحمل، ويخرج الجنين من بطن أمه حاملاً صفات عدوانية ونشاطاً زائداً ملحوظاً، والنوع الثاني؛ تلك الجينات التي تظهر من خلال تعامل الإنسان مع البيئة المحيطة به، فيكتسب صفات عدوانية بالتبعية، والنوع الثالث؛ هي الجينات التي تتكون نتيجة استعمال أدوية معينة أو تعاطي أنواع معينة من

المخدرات، والنوع الرابع؛ تلك الجينات التي تدخل الجسم بفعل الإنسان، ويتم تحضيرها معملياً وحقنها داخل خلايا الإنسان.  
أضفت معلقاً:

- كما في حالة «الوتار».

واصل الدكتور فضالي:

- ربما يكون «الوتار» قد أصيب بمتلازمة «برونير»، نتيجة طفرة أدت إلى نقص هرمونات «السيروتونين والهيستامين والدوبامين»، مع وجود فائض منه بكثرة في الدماغ، مما يؤدي إلى حدوث الانفعال والعصبية والعنف، بشكل مبالغ فيه.

انضمت إلينا «نيللي فؤاد»، وهي تحمل بعض العينات ووضعتها بجوار الميكروسكوب، ثم تدخلت في الحديث وهي تسأل بعفوية:

- ترى من من مصلحته تحويلنا من بشر إلى حيوانات مفترسة؟  
من لديه القدرة على انتزاع إنسانيتنا ولصق صفة الوحوش والعظايا داخل خلايانا؟

وضع الدكتور «فضالي» التقرير جانباً، وهو يهز رأسه قائلاً:

- هذه هي «اليوجينيا» في أشنع صورها، فبعد سلسلة من الحروب الطويلة، استخدمت فيها أعتى الأسلحة وأشدّها ضراوة، وبعد عمليات القتل الجماعي المتعمد لشعوب معينة، والإبادة الجماعية والأوبئة، أثبتت التجارب السابقة؛ أن كل هذا لن يؤدي إلى إنقاص البشر أكثر من بضعة ملايين، بينما أعداد السكان تتزايد بمتواليات رهيبية، لكن بعد إحداث الخلل في جين «ماو» داخل أجساد

البشر، سيقتل البشر بعضهم بعضاً، سيتحولون إلى ضباع شرهة للدماء. هذا سيؤدي إلى تناقص عدد سكان الأرض بشكل كبير، ربما يصل إلى النصف أو الربع في سنوات قليلة، وعندئذ من سيتبقى، هم من يستحقون الحياة برفاهية.

وقفت فجأة وأنا أقول في عزم وتصميم:

- من أجل ذلك سأجري بإجراء تجربتي على «الوتار»، سأصلح الخلل، سأنتزع جين «ماو» الملصق على الذي إن إيه، ومن ثم سأنتج مصلاً جديداً، سيقضي على العنف في العالم، لكي يعيش الإنسان في سلام.

هز الدكتور «فضالي» رأسه معترضاً:

- كأنك يا «ناجي» تفكر برأس الیوجينيين وتكلم بلسانهم، فكما هم يريدون تغيير بعض الصفات لتحقيق أهدافهم، ها أنت تنتزع صفات لزرع صفات بديلة.

هدأت من انفعاله بقولي:

- يا أستاذي؛ أنا أنتزع صفات الشر والعنف والهمجية، لأزرع مكانها صفات الخير والفضيلة. أهدبُ العالم جينياً وبيولوجياً قبل تهذيبه أخلاقياً.

قاطعني وهو يسأل بمرارة:

- ومن أعطاك الحق في التمييز بين الأخلاق والرذيلة، أليس من الممكن أن يكون اختيارك للخير هو شر كامل.

أجبتة:

- القضية ليست قضية خير وشر، ولا مجرد تغيير صفات فحسب، وإنما الأخطر لو دَهَمْنَا وباء، ليقضي علينا فرادى وجماعات؛ كيف نواجهه؟ تجربتي على «إسماعيل الوتار»، تستهدف أولاً إلى تطهير خلايانا من كل ما يهددنا، من جينات لا تتفق مع إنسانيتنا، وفي الوقت نفسه؛ سأعالج الخلل الذي قد يصيب خلايانا بمجموعة من الأمراض، تسببها فيروسات تعد معملياً الآن لتقضي علينا. أليس هذا هو حلم البشرية الأسمى بالوصول إلى الإنسان الكامل، أليس حلمك أنت يا دكتور «فضالي» بمواجهة الیوجینیین الجدد، والقضاء على أحلامهم ومخططاتهم.

نظر لي ملياً ثم قال بصوت حزين:

- وما أدراك أن التجربة ستنجح، أليس من الممكن أن تقضي على السجين قبل موعد الإعدام فتتحمل وزره أمام الله وأمام القانون؟ أخشى ما أخشاه وأنت تُصلح الخلل في جين «ماو»؛ أن تحدث خللاً أكبر في تركيب البشر والتوازن البيئي، فليس كل ما نراه عيباً هو عيب بالفعل، وبعض العنف قوة كما يقولون.



(٢٣)

## الحجرة ٢٥

ترى ماذا أسمى ما سأفعله؟ ضميري وأخلاقي ومبادئ وشرف المهنة والقسم الذي أقسمته يأبى علي أن أفعل. لكن شيئاً آخر يدفعني إلى ذلك. إجراء تجربة فريدة من نوعها، لم يجرؤ على القيام بها إنسان، لانتزاع نزعة العنف والجريمة من البشر. التجربة محتملة الفشل أو النجاح، ولن نخسر شيئاً. سيموت «إسماعيل الوتار» إن عاجلاً أو آجلاً. أخبرني مأمور السجن أن تنفيذ حكم الإعدام سيقع في الثامنة من صباح الاثنين ١٥ مارس، أي بعد أسبوعين من الآن. وذلك بعد إجراء الفحوصات اللازمة على السجين، والتوقيع على التقرير الطبي. يا لها من فرصة سانحة. لكن لو اكتشف إنسان الحقيقة ستكون كارثة. لا. لن يكتشف أحد شيئاً. فأنا الطبيب الوحيد المكلف بالكشف على السجين، وسيكون تحت رعايتي في المستشفى.

- «إسماعيل خليل الوتار»-

غمغمت وأنا أكتب تقريرتي محدثاً إياه بصوت مسموع:

- بالكشف على السجين «إسماعيل خليل الوتار»؛ وجد أنه يعاني

من جفاف بالرئة، نتيجة عدوى فيروسية، ويجب حجزه في قسم العناية المركزة بمستشفى السجن.

أطرق إسماعيل قليلاً ثم قال:

- يا دكتور أرح نفسك، إذا كانوا كلفوك الكشف علي قبل تنفيذ حكم الإعدام، فاكتب السجين لا يعاني من شيء على الإطلاق لينتهي الأمر، أما إذا كانوا يريدون أن يمنحوني عمراً ظناً منهم أنني سأضيف جديداً، فليس لدي ما أقوله.

تركته دون أن أعقب.

في اليوم التالي؛ كان «إسماعيل الوتار»، يشغل الحجرة رقم (٢٥) بالمستشفى، وعلى بابها يقف حارس السجن. دخلت عليه ثم ربت على كتفه:

- اطمئن يا «إسماعيل». أنت الآن تحت إشرافي الطبي، ولن يستطيع أحد أن يؤذيك.

نظر «إسماعيل» لي باستهانة ثم عقب:

- عجيب هذا الأمر، تعالجون المحكوم عليه بالإعدام حتى يشفى، ثم تقتلونهم، لا تظن أنني عابئ بالموت الذي أتوقعه بين لحظة وأخرى. لقد عرفت مصيري يا دكتور، إنني أتعجل الموت في كل لحظة كي ينقذني مما أنا فيه من عذاب.

عاد ضميري يوخزني من جديد، لكنني لا أستطيع التراجع الآن. فمن غير المعقول ألا أستغل تلك الفرصة السانحة، وأدعها تمر هكذا بلا فائدة. لذلك ينبغي أن أجري تجربتي بسرعة. والآن.

كنت قد أعددت كل شيء، غرفة العمليات، التخدير، المحاليل، والأهم. ذلك الإنزيم العجيب الذي وضعته على الشريط الوراثي

للفيروس «يوجينيا»، الإنزيم نفسه الذي التقطته من رئة الفتاة القتيلة «شاهنده»، لكي يدخل على خلايا «الوتار»، ويقص وينتزع الجين «ماو» جين المجرمين. يا لعجائب القدر فيروس القتيلة داخل خلايا قاتلها. رحت أدرس في ذراع «الوتار» حقنة ملوثة بالفيروس «يوجينيا» المسبب لجفاف الرئة، والحامل لإنزيمات قص الجين «ماو»، ثم تركته بعد أن نبهت عليه أن يطلبني فوراً إذا شعر بأي شيء، وزيادة في الحيطة حذرت جميع ممرضى المستشفى من دخول غرفته. فالفيروس خطير ومُعَدِّ، وقد يسبب هلاك الرئة في غضون أيام، لكن بمجرد إعطائه اللقاح، سيعود «الوتار» إلى حالته الطبيعية. وسيشفى تماماً، وبعدها يمكن تنفيذ حكم الإعدام فيه، بعد أن أكون قد انتزعت من خلاياه جين «ماو»، جين المجرمين.

بالرغم أنني قدرت أن تأثير المحلول لن يظهر قبل أربع وعشرين ساعة، فقد آثرت البقاء بالمستشفى، حتى أتمكن من مراقبة الحالة جيداً. وفي ساعات الليل لم يحدث شيء غير عادي، سوى ارتفاع طفيف في درجة الحرارة مع سعال خفيف، وكل هذه أعراض طبيعية تحدث في بداية الإصابة بالفيروس، الذي يُجفِّفُ الرئة من السائل البللوري قبل إصابتها بالتليف.

وفي المساء بادرني «الوتار» بابتسامة، وتعجبت فهذه هي المرة الأولى التي أراه يبتسم. حبيته بابتسامة مماثلة، ثم تركته وعدت إلى حجرتي.



لم أُنم غير ساعتين، ولم أكن بحاجة إلى النوم أكثر من ذلك، بالرغم من الإجهاد الذي أشعر به، فإن لهفتي على مواصلة التجربة أفضت مضجعي وحرمتني من النوم. فلا بد أن تكون بعض الأعراض قد ظهرت عليه الآن، كالسعال الجاف، وحكة الحلق، وارتفاع درجات الحرارة والهزال والشحوب.

انتبهت فجأة على ضجة بالخارج، وقرع شديد على الباب، عندما فتحت فوجئت بصالح التومرجي يصيح: «الوتار» هرب يا دكتور.

(٢٤)

## فيروس في قم قم

ظلت أحملق في وجه الرجل غير مصدق؛ وكأن صاعقة هوت فوق رأسي، بينما واصل صالح التومرجي:  
- عندما فتحنا باب حجرته وجدناه قد هرب عن طريق النافذة، مستخدماً المواسير.

بدأت الأمور تتضح أمامي شيئاً فشيئاً. تقرير كاذب يؤجل حكماً بالإعدام. سجين يهرب من المستشفى. لم يهرب وحده بل هرب معه فيروس خطير سريع الانتشار. تراه الآن مندساً بين الناس سيتساقطون الواحد تلو الآخر.

تهالكت على حافة فراشي، وأنا أدفن وجهي بين كفي. لا أنكر أنني كنت أبكي. بعد قليل سمعت صفارات عربات الشرطة، وتناهى إلى سمعي صوت يحذر المارة من هروب سجين خطير. لبت الأمر ينتهي عند هروب السجين. فالفيروس الذي هرب معه أخطر منه بكثير. حتى لو عاد السجين؛ فلن يغير من الأمر شيئاً. لقد انطلق الفيروس، خرج من القمقم، تحرر من قيده داخل زجاجات التجارب. لقد قتل «إسماعيل الوتار» نفساً واحدة، أما أنا فسأقتل المئات. وتذكرت أن الفيروس المسبب لجفاف الرئة، لن يحتاج سوى أيام قلائل كي ينتشر.

أدرت مقبض الباب وفتحته لأجد أمامي العميد «سراج عسل»،  
فرحت أعترف له بكل شيء. راح الرجل ينظر لي في ذهول، لا يصدق  
ما يسمعه، حتى انتهيت؛ فهب واقفاً وهو يقول بحدة:

- أتعي ما تقول يا دكتور؟

أومأت دون أن أرد فأردف:

- أنت لا تقدر عواقب ذلك عليك.

صحت مسرعاً:

- العواقب ستكون وخيمة على المواطنين. يجب أن نتصرف  
بسرعة يا فندم.

قال وهو يشعل سيجارته بعصبية:

- كيف يمكننا التصرف الآن يا دكتور بعد جريمتك الشنعاء؟ أنت  
متهم بمساعدة سجين خطير محكوم عليه بالإعدام على الهرب.

قلت وأنا أنظر إلى الناحية الأخرى مولياً له ظهري:

- المهم أن نقبض على الفيروس الهارب.

وقف العميد سراج قبالي وهو يقول في سخرية:

- كيف نقبض عليه يا دكتور؟ هل نشر له صورة في الجرائد  
ونكتب تحتها ابحث مع الشرطة، أم نستدعي الإنترنت للبحث عنه؟

- اجلس يا فندم وأنصت لي جيداً. طبيعة أي فيروس أنه يحتاج  
إلى فترة حضانة قد تمتد إلى أيام أو أسابيع، لذلك كل ما أرجوه هو  
محاصرة الفيروس بأي وسيلة.

- كأنك تفسر الماء بعد الجهد بالماء، وفي الوقت نفسه تصعب المشكلة، كيف يمكن محاصرة الفيروس والقضاء عليه، وفي الوقت نفسه معرفة مكان «الوتار»؟

رحت أقول كأنني ألقى بورقة التوت الأخيرة:

- دعنا نتعاون معا يا سيادة العميد في الإيقاع بـ«الوتار» والفيروس في الوقت نفسه، ومن مراقبة حركة انتشار المرض وسقوط الضحايا، سنتمكن من معرفة مكان المتهم.

لم تمض سوى دقائق قليلة حتى بدأت عربات الشرطة تجوب الشوارع، وهي تلقي على الناس أغرب بيان:

«ما زال البحث جارياً عن السجين الهارب «إسماعيل خليل الوتار». السجين حامل لفيروس مرض خطير. وزارة الصحة تنبه المواطنين على ضرورة العزل التام، وعدم الاختلاط والتلامس والاتصال الجنسي، والإبلاغ عن أي أعراض تظهر للمرض الجديد، وعدم الانتقال من مكان لآخر لحين صدور أوامر أخرى».

في البداية بدا هذا البيان غريباً، وارتسمت أمارات الدهشة والتعجب على الوجوه، واتخذ البعض من البيان وسيلة للسخرية وإلقاء النكات السخيفة.

أعدت وحدات للإيواء مجهزة بكل وسائل الرعاية الصحية، وبدأت الوحدات في استقبال الأهالي، وفرضت حالة حظر التجول منذ ساعة إعلان البيان، وأغلقت المدارس والهيئات والمحال خوفاً من انتشار الوباء الفيروسي الخطير.

انتفضت من مكاني ثانية عندما رن هاتفي الجوال، وسمعت صوت «نيللي فؤاد» تخبرني أن حالة جديدة أتت منذ لحظات وتنتظر.

هرعت إلى هناك كالمجنون، لأجد شاباً تجاوز العشرين بقليل، يبدو عليه الإرهاق والهزال الشديدين، عرق كثيف يغطي وجهه ونشع من ملابسه. بعد إجراء التحاليل اللازمة تهالكت على أقرب مقعد وأنا أهمس.

- أبهذه السرعة ظهرت أعراض المرض. هو الفيروس «يوجينيا» نفسه الذي حقنت به «الوتار»، وهذه أول حالة مرضية بعد هروبه.

صاحت نيللي:

- ما هي إلا ساعات وينتشر المرض انتشار النار في الهشيم، ليبيد المدينة بأكملها.

عقبت:

- كل دقيقة تمر فيها خطر على حياة العشرات. سيسري المرض دون أن يشعروا بأن الموت يتسلل داخل أبدانهم ليدمر رئاتهم. يجب أن أطفئ النار قبل أن يستعر أوارها، ويتأجج لهيبها، ويتحول كل شيءٍ إلى رماد تذرره الرياح.

عدت ثانية إلى غرفتي بالمستشفى، ولا أعرف لماذا شعرت بالخوف. لم أكن أخشى من تحذير العميد سراج لي بعدم تركي المستشفى، واحتمال القبض علي في أي وقت، كل ما أخشاه هو ذلك الفيروس الهارب «يوجينيا»، فقد خيل لي أنه سيدخل جسدي في أي لحظة. ومر بي خاطر أن يكون قد دخل جسدي بالفعل، وهو الآن

يقضي فترة حضانته داخل الرئة. وتذكرت أن الفيروس الذي حقنت به «الوتار»، ليس بحاجة إلى فترة حضانة؛ بل ينشط بمجرد انتقاله إلى جسد العائل. ازداد خوفي عندما بدأت أشعر في أوصالي بإرهاق وتكاسل شديدين، وبجبات عرق تتفصد من جسدي كله، وبآلام في صدري وارتعدت وأنا ممدد في الفراش. حاولت القيام فلم أستطع، وكأنني قيدت بسلاسل من حديد. رحت أتتنفس بصعوبة، بدت الأشياء أمام عيني وكأنها خيالات تتراقص حتى رحت في إغفاءة.

(٢٥)

## كابوس

رأس وذيل. رأس أسود وذيل أبيض. الرأس يسير بسرعة فوق بساط بني اللون. الذيل صُلْبٌ لا يلتوي ولا يلين. يسير أينما يوجهه الرأس. ارتسم خط رفيع فوق البساط. عاد الرأس ثانية إلى موضعه ليرسم خطأً ثانياً ثم ثالثاً. أف. قلتها للمرة العشرين، حتى أوشكت أن تنفجر. الرأس يروح ويجيء عدة مرات، ثم. (تشييت).

أخيراً اشتعل عود الثقاب بعد عشرات الأعواد رميتها دون أن تشتعل، وبعد نفاذ صبر ولعن على الشركة التي أنتجت أعواد الثقاب الفاسدة هذه. قربت رأس العود المشتعل من مقدمة السيارة. ألقيت بالسيجارة جانباً، ورحت أحملق في وهج العود غير مصدق. خيل إلي أن شيئاً يتحرك، لا لم يخيل إلي. لقد رأيتها بالفعل؛ أجساماً كروية تروح وتجيء في مركز اللهب. الأجسام تتحرك بسرعة رهيبية وتصطدم بعضها ببعض لتخلف وهجا وحرارة، وتنتج كرات لها أهداف تنتشر في كل اتجاه كأنها كائنات أميبية، ما لبثت أن نمت سريعاً. وانفصل رأس عود الثقاب عن الذيل وسقط فوق الفراش.

انفضت. دفعت اللهب بعيداً فحرقت يدي، وقع الرأس الملهب فوق السجادة وأمسك بها، سرعان ما اشتعلت فيها النيران. اندفعت نحو النار أحاول إطفاءها بالماء، لدهشتي لم تتطفئ النار، بل راحت

تبتعد عن الماء واختارت ركناً من السجادة تأكل فيه، لمحت المكينة خلف الباب، أمسكتها، دفعت بها اللهب بقوة، انتقلت قطعة اللهب إلى حجرة الجلوس، أمسكت بمقعد فوتي. جن جنوني. رحت أقذف بالرأس الملهب خارج البيت وأنا خلفه.

الرأس ينمو أكثر فأكثر، مكوناته تبدو أمام عيني أشد وضوحاً. كرة ضخمة من اللهب في مركزها كائنات هلامية تنمو وتتكاثر بسرعة رهيبية، تنتشر في كل مكان، تدمر ما في طريقها من أناس ودواب وحدائق وبيوت ومبان، انهارت بساكنيها وحولتها إلى رماد تذرره الرياح، حالة من الفوضى والذعر سادت بين الناس، وراحوا يتساءلون: - هل هذه هي النهاية؟ هل قدر للبشرية أن تنتهي محترقة بنيران مجهولة؟

استيقظت من نومي وأنا أطلق صرخة فزع، لم تكن المرة الأولى التي ينتابني فيها هذا الكابوس اللعين، فمئذ هروب «الوتار» اعتاد زيارتي في صحوي ومنامي، فيعكر ساعات صفوي وينغص علي أحلامي. أشعر كأن شيئاً جاثماً فوق صدري، عقلي لا يستطيع أن يتصور حجم الكارثة التي تسببت فيها.

من مراقبة خريطة انتشار المصابين بالفيروس «يوجينيا»، تبين أن معظم المصابين كانوا من محافظة الجيزة، وبالتحديد من منطقة إمبابة القريبة من موقع المستشفى، ما يدل على أن السجين «إسماعيل الوتار» مختبئ في هذه المنطقة، أو قريبٌ منها، لذا كثفت أجهزة الأمن حملاتها في منطقة إمبابة وضواحيها، فأغلقت الطرق الرئيسية

وعمل عدة كمائن بين المحافظات المتاخمة، كالقليوبية وبنى سويف والفيوم، وبدأت الأجهزة الأمنية في البحث في الأماكن المتوقع وصول المجرم إليها، كمنزله ومنزل عائلته ومعارفه والتحقيق معهم. لكن لم تمر أربع وعشرون ساعة؛ حتى كان المصابون بالفيروس نفسه يتساقطون في أماكن أخرى بعيدة عن إمبابة، ووصلت إلى المحافظات البعيدة، كالإسكندرية ومطروح، إلى جنوب الصعيد. وبذلك سقطت نظرية تحديد مكان المجرم من خريطة انتشار المصابين، حيث أعلنت وزارة الصحة عن ظهور وباء فيروسي جديد يدمر الرئة في ساعات.



(٢٦)

## عشماوي في بيتنا

كنت بحاجة شديدة للاطمئنان على والدي، ترى كيف يعيشان بعد انتشار الوباء؟ مر وقت طويل لم أزرهما بسبب انشغالي بالتجربة، وعندما بدأ الفيروس في الانتشار؛ عزلت نفسي عنهما حرصاً عليهما. لن أسامح نفسي لو أصابهما مكروه، وهل سأسامح نفسي على الضحايا الذين سقطوا منذ انتشر الوباء؟

وأنا في طريقي إلى المنزل تحصنت بكل وسائل العزل من ماسك زجاجي وقفاز ورششت الكحول على يدي وملابسي. فتحت الباب؛ كان البيت من الداخل يبدو مهجوراً، ومنذ متى لا يبدو بيتنا كذلك حتى قبل الوباء، فداًئماً أُمي في حجرتها وأبي في مكتبه، لكنني سمعت صوت أُمي من الداخل:

- من. من؟

أسرعت إلى حجرتها في لهفة، فتحت الباب، كانت ممددة في الفراش، ما إن رأيتني حتى نهضت مسرعة نحوي، اندفعت نحوها ملتصقة حضنها الدافئ لألوذ به مما يحيق بي من كوارث تلاحقني كلما خطوت، لكنني تذكرت أنه ممنوع علي عناقها أو لمسها أو حتى الاقتراب منها. فتراجعت وأنا أشير لها أن تبقى مكانها حتى لا تصاب بالفيروس، فقد يكون مختبئاً بين أناملتي أو في أنفاسي أو تحت جلدي أو داخل خلاياي. صاحت جازعة:

- أوحشتني يا «ناجي».

ما أشقاها تلك اللحظة؛ التي لا أستطيع فيها أن أقترب من أمي، وأريح رأسي على صدرها، وأترك يديها تعبت في شعري، لكن الفيروس اللعين حال بيني وبين حنانها، فأجهشت دون أن أدري، ورحت أسألها:  
- معذرة يا أمي. مر وقت طويل لم أزرك فيه، ولا أدري إن كنت علمت بما جرى؟

راحت تخفف من وطأة شعوري بالذنب:

- علمت؛ لكنني لم أصدق أن تكون من تسببت في قتل إنسان، بالتأكد وشاية أو مكيدة، شدة وستزول بإذن الله وربك سيظهر الحقيقة. هون عليك يا حبيبي.

أخفيت دمعتي وأنا أسألها:

- أين أبي؟

- في مكتبه.

تركتها متجهاً نحو حجرة مكتب أبي وقبل أن أغادرها صاحت:

- «ناجي»؛ لا تَغِبْ عني.

طرقت باب مكتبه وسمعتهم يهمهم في خفوت:

- ادخل.

كان أبي جالساً كعادته يقلب صفحات أحد المراجع القانونية الضخمة، يرتدي الماسك حتى وهو في مكتبه، نظري من خلف نظارته السميقة، نظرة حادة جمعت بين اللوم والعتاب والتساؤل

والزجر؛ جعلتني أشعر بالخوف الحقيقي، فخوفي من عقاب أبي الذي لا أعلمه، أشد كثيراً من المحاكمة والسجن الذي ينتظرني، وبدلاً من أن أحبيه وأطمئن عليه وجدتني أقدم اعتذاري وأسفي:

- معذرة يا أبي، لم أكن أقصد ما حدث، لكنني أعدك أنني سأصلح كل شيء، وهذا الفيروس اللعين لن يكون له أثر.

صاح دون أن تزايله نبرة التأنيب والتبكي:

- أيحدث هذا من ابن رئيس المحكمة الدستورية العليا؟ أي عار

هذا؟

لا ينسى نفسه حتى في أشد اللحظات، أطرقت دون أن أرد، فأردف مواصلاً وصلة التبكي:

- هلا عرفت الآن لماذا كنت أصر أن تضع كل تركيزك في دراسة القانون، بدلاً من الجينات والفيروسات التي جلبت علينا الدمار والهلاك. لو كنت سمعت كلامي لكنت قاضياً منذ سنوات، لكنك أوقعت نفسك وأوقعتنا فيما لا تُحمد عقباه.

ثم عاد يقلب المرجع ثانية، وهو يهز رأسه في اعتراض، فرحت أسأله:

- لكن من وجهة نظر حضرتك ما هو الموقف القانوني بالنسبة

إلي؟

هز كتفه وهو يقول بنبرة أقوى وكأنه في قاعة محكمة:

- أبعد حصولك على الدكتوراه في القانون لا تعرف حتى الآن التوصيف القانون لفعلتك. يبدو التوصيف القانوني للقضية قتل خطأ ينتفي معه شرط سبق الإصرار والترصد.

تنفست الصعداء في ارتياح، لكنه استأنف قائلاً بصوت جهوري:  
 - لكنك قمت بعمل تجرية دون إذن على متهم خطير محكوم عليه  
 بالإعدام، مما سهلت عليه عملية الهرب، بل حقته بفيروس خطير  
 مسبباً وباء أدى إلى قتل الكثيرين، وهذه جناية قد تصل عقوبتها إلى  
 الأشغال الشاقة المؤبدة وربما الإعدام.

ظلت كلمة الإعدام تتردد صداها في أنحاء الغرفة، ولا أدري إن  
 كان القميص والبنطال الأحمر اللذان أرتديهما من قبيل المصادفة، أم  
 خيل إلي أنني بالفعل في قاعة تنفيذ حكم الإعدام، وأن النجفة المعلقة  
 في السقف قد تحولت إلى حبل معقود، ووالدي تحول إلى عشاوي،  
 فأسرعت بترك حجرته على عجل وأنا أردد في شبه هيستريا:

- كل شيء سيكون على ما يرام. كل شيء سيكون على ما يرام.  
 على ما يرام، يرام، يرام.

ما زلت أرددها وأنا أنطلق هائماً على وجهي في الطرقات، كأن  
 العالم كله يطاردني.



علمت بعد ذلك، أن إلهتي الطيبة؛ أمي، اقتحمت عليه حجرة  
 مكتبه، بعد انصرافي مباشرة، وراحت تبتسم في سخرية وهي تقول:  
 - أصدرت عليه حكمك دون أن تبحث عن الدوافع التي جعلته  
 يسلك هذا السلوك. أتعرف يا سعادة المستشار من المسؤول فيما  
 جرى من تسريب فيروس سي تسبب في قتل المئات من البشر دون أدنى

ذنب، ليس ابني ناجي، بل أنت يا حضرة القاضي، جعلت من نفسك إلهاً له صفتان القسوة والبطش، ونسيت أن الله سبحانه وتعالى يعامل عباده بالرحمة قبل القسوة والعدل قبل البطش. لو كنت عاملته منذ البداية بالحكمة والمودة، وأقمت معه حواراً كصديق وليس كابن، ما كان نشأ متريداً مشتتاً بين الحقوق والعلوم. وانعكس بعد ذلك على كل تصرفاته، فسافر أمريكا ليس من أجل الحصول على الدكتوراه، ولكن ضجراً وخوفاً منك، حتى عندما فكر في تجربته كان كل همه أن ينتزع جينات القسوة التي رآها فيك. يا سعادة القاضي الجليل، حاكم نفسك مرة واحدة ربما تستطيع أن تعدل ميزان العدل.

نظر لها بدهشة، كيف جرؤت على جداله، وهو الذي لا يسمح لأحد أن يجادله، فهو الحجة واليقين، لكنها لم تعطه فرصة للاعتراض أو للرد وتركته.

(٢٧)

## كريسبر كاس ٩

أنا القاتل، أنا السفاح. أجل أنا. لكنني سفاح من نوع جديد. يبيد المئات والألوف بحقنة فيروس، وكلما تناهى إلى سمعي سارينة سيارات الإسعاف، وهي تدوي معلنة قدوم ضحية جديدة؛ يخفق قلبي ويغوص في أعماقي، وأشعر كأن روحي تخرج من جسدي. راحت «نيللي فؤاد» تراقبني بعين مشفقة حزينة وقد أحكمت وضع القناع الطبي العازل، وهي تقول:

- وبعد يا «ناجي». هل ستظل حاملاً لهم هكذا؟ هون عليك.

أطلقت تنهدة عميقة خرجت من أغوار قلب يضطرم:

- منذ هروب «الوتار»؛ أقصد الفيروس «يوجينيا»، تضاعف عدد المصابين بشكل هيستيري في متواليّة هندسية لا عددية. وكأنني بدلاً من إصلاح خلل الجين «ماو»، نشرت وباءً كاملاً دون أن أدري.

- أليست هناك وسيلة جديدة للتعامل مع هذا الوباء؟

راحت تسأل وهي تفكر معي في حل لهذه الكارثة بينما كنت أفكر.

كان علي أن أستخدم خاصية القص واللصق، التي يطلق عليها (كريسبر كاس ٩)، «المقص الجيني الرهيب»؛ الذي يقص أي خاصية غير مرغوب فيها على الشريط الوراثي وفي أي مرحلة، ويتم من

خلالها التحكم في سلوك وتصرفات كل الفيروسات والبكتيريا . لذلك تمثل الرد في لقاح جديد أطلقت عليه «كاس ٩»، ثم أضفت صفة جديدة على الشريط الوراثي للفيروس الجديد، الذي قمت بتهيئته للقيام بهذه المهمة، بحيث تقضي على كل مسببات مرض «متلازمة ضيق التنفس وتحوارات»، وتعطي الجسم مناعة كاملة لمقاومة تأثير الفيروسات.

في أقل من نصف ساعة؛ أصبح لدي في المعمل مصل جديد، لديه قدرة كبيرة على التهام الفيروس المسبب في تجفيف الرئة من السائل البللوري، وبدأت أحقن به الحالات الوافدة، وانتظرت بضع ساعات لأرى تأثير هذا المصل على الحالات الجديدة. لدهشتي اختفت الأعراض، وبدؤوا يستعيدون التنفس الطبيعي. وفي أيام غادروا جميعاً المستشفى.

تهالكت على مقعدي وأنا أتنفس الصعداء، بعد الساعات الرهيبة التي قضيتها وأنا أشعر بالذنب لتسببي في هذا الوباء. واقتربت مني «نيللي فؤاد» وهي تقول في وله:

- ما أروعك يا حبيبي.

- اقتربت منها وأنا أقول:

- أخيراً نطقها واعترفت بها .

- لا تتصور مدى اعتزازي بك بعد اكتشافك هذا .

اقتربت منها وتلاقت شفتانا في قبلة حارة وتشابكت أيدينا، بينما تنهاني إلى سمعي وجيب قلبها، وراحت تقول محاولة استعادة اتزانها:

- من الأفضل حفظ الفيروس واللقاح «كاس ٩» برقم كودي سري، حتى يتم التحكم في الفيروس المسبب للوباء، وأيضاً في العلاج.

ما زالت يدي تتشبث بيدها، فرحت أكتب بإصبعي في كفها الرقم السري الذي أغلقت عليه الفيروس واللقاح وأنا أقول:

- هذا الكود لو تسرب إلى غيرنا، خاصة اليوجينيون الجدد، سيتحول العالم إلى غابة سيقتلون بعضهم بعضاً، لكنني لن أبوح به لأحد غيرك. حتى لو حدث لي شيء، فحسبي أنه معك.

راحت تقول منتشية:

- سلمك الله يا حبيبي.

وأسرعت إلى العميد «سراج» أزف إليه الخبر:

- تستطيع الآن يا سيادة العميد أن ترفع الحصار عن أهالي المدينة وتبحث عن «الوتار» كمسجون عادي. فليس هناك فيروس خطير. الأمر لا يعدو عن كونه مادة كيميائية تعالج بمادة كيميائية مشابهة.

نظر لي العميد «سراج» بوجه جامد وهو يهز رأسه:

- ولكن هذا لن يغير من الأمر شيئاً. أنت ما زلت متهما بمساعدة سجين على الهرب، وسوف تتخذ ضدك كل الإجراءات القانونية.

وقفت وأنا أقول:

- لا شيء يهم الآن. أخيراً أستطيع أن أستيقظ من هذا الكابوس. راح اسمي يتردد في جميع أنحاء العالم، «ناجي خلوصي»، مبتكر

«كاس ٩»؛ اللقاح الذي خلص العالم من أخطر وباء يهدد البشرية. وبدأت الحالة الطبيعية تعود من جديد بعد انتهاء الحظر وفك العزل. انتهزت الفرصة وقمت بزيارة لمنزلنا، ورحت أعانق أمي بشوق الأسابيع الطويلة الماضية، فراحت تضميني وتقول:

- كنت واثقة أنك ستقضي على الفيروس.

أما أبي فلوى شفتيه وهو يقول بسمته الهادئ:

- لكنك على أي حال تسببت في مقتل العشرات، من سيتحمل ذنب هؤلاء.



في الصباح التالي عندما دخلت غرفتي بالمستشفى، فوجئت أن أعداداً كبيرة من الحالات جاءت إلى المستشفى في حالة سيئة، رحمت أقول ببساطة:

- لا يهم. سأُعطيهم اللقاح نفسه «كاس ٩» الذي استعملناه مع الحالات السابقة.

لم يمض نصف اليوم التالي، حتى تبين لي أن اللقاح لم يفلح مع هذه الحالات، وتوفي عدد منهم والباقيون في حالة سيئة. ما الذي حدث؟ حللت الفيروس المتسبب في الحالات الجديدة، هو الفيروس «يوجينيا» نفسه الذي قمت بزراعته داخل خلايا «إسماعيل الوتار»، لكن تبين لي أن تعديلاً ما جرى على الصفات الوراثية للفيروس، فقد تم قص جزء من الشريط الوراثي للفيروس، ولصقت مكانه صفة جديدة، صفة غيرت من سلوك الفيروس، بحيث جعلته يقاوم كل

المضادات الحيوية، ويفسد عملها، وفي الوقت نفسه؛ يوقف عمل الجهاز المناعي في الجسم.

معنى هذا أن رأساً آخر يعمل في الاتجاه المعاكس؛ رأساً شريراً يفسد كل ما أقوم به. ترى من يكون؟ وكيف عرف بسر التجربة؟ وهل يتحفظ على «الوتار» في مكان ما، ويستعمله كأداة لتصدير الفيروس وتحوراته؟ وما هي الخطوة القادمة التي يعد لها هذا الرأس؟

لم أنم تلك الليلة. مضيت أفكر ولكن بشكل مختلف، وبدا لي هذا التحور الجديد للفيروس «يوجينيا»؛ ما هو إلا رسالة من مجهول، يريد أن يقول لي: «لقد أصبحت يوجينيا رغماً عن أنفك، وستنفذ كل ما نريده دون إرادة منك».

لم يكن من العسير إعطاء اللقاح «كاس ٩»، للمرضى المحتجزين داخل مستشفى العزل، الذين أشرف عليهم بطبيعة الحال، مع تطبيق بروتوكول كامل للعلاج، لكن الأصعب أن تقنع الناس في كل مكان بأخذ اللقاح «كاس ٩»؛ ولا سيما بعد ادعاء بعض الجهات على وسائل التواصل الاجتماعي بعدم فعالية اللقاح الجديد، وأن هذا اللقاح ما هو إلا محاولة للتخلص من أعداد كبيرة من البشر، ممن ليس لديهم مناعة قوية لمقاومة المرض، ولأول مرة يتصدر اسم «يوجينيا» وسائل التواصل الاجتماعي، بعد اختفاء المصطلح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وها هو يعود من جديد حاملاً معه الرعب والتهديد، فرفض الكثيرون أخذ اللقاح «كاس ٩»، بل إن بعضهم فضلوا الموت على أن يكونوا مجرد فئران تجارب، لطبيب متهم بمساعدة سجين على الهرب محكوم عليه بالإعدام.



(٢٨)

## موسم فقس العقارب

أن تطوّر فيروساً وتتحكم فيه عن بعد بل تسيطر عليه، أيسر بكثير من إقناع الناس بما تفكر فيه، وبما هو أصلح لهم. لذلك كان علي أن أعلن على الملأ عبر وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والإلكترونية، أن حرب الجينات قد بدأت بالفعل، وأن هناك عقولاً شريرة جبارة تعمل في الخفاء، لقتل البشر في جميع أنحاء العالم.

لم أكن أتصور أن دعوتي ستحدث هذا التأثير، وخرجت تقارير تؤكد صحة نظرتي، عندما بدأ سقوط المئات نتيجة الإصابة بالفيروس المتحور، وسادت حالة من الرعب والفرع. وأعلنت منظمة الصحة العالمية؛ عن ظهور الجيل الثاني من الوباء أشد خطورة من الجيل الأول.

ووجدت الفرصة مواتية للإعلان عن لقاح «كاس ٩»، «اختراعي المذهل»، بعد أن تماثل للشفاء جميع المصابين وخروجهم من مستشفيات العزل، وأثبتت جميع المسحات المأخوذة خلوها من الفيروس «يوجينيا»، وبدؤوا يمارسون حياتهم الطبيعية. وقد أكدت جميع التجارب التي أجريتها وساعدتني فيها «نيللي فؤاد» فعالية اللقاح «كاس ٩».

عندئذ فقط بدأ فرض اللقاح «كاس ٩» على جميع الناس في كل مكان بالقوة، وترتبت حملات ضخمة لإعطائه في المنازل بعد فرض العزل على الجميع.

في هذه الأثناء توطدت علاقتي أكثر بـ«نيللي فؤاد»، وصارت مصدراً لوعيي وإلهامي، أبحث عنها في الوجوه وكتب الطب والوراثة حتى في ذكرياتي، فقد صار لوجودها بجانبني أهمية كبرى، فإذا تغيبت أظل طيلة اليوم مكفهرًا مهمومًا، كانت «نيللي» تبادلني نفس الشعور، وتظهر لي الاهتمام، فتتعمد أن تلتقيني كلما تيسر، وإذا أنهت عملها تنتظر حتى انتهاء نوبتي بالمستشفى، ثم تلحق بي وتخلق صدفًا للقاء، حتى لاحظ الجميع ذلك وبدؤوا يتدرون علينا .

وكانت «نيللي» تنفاني في حبها لي، صارت كل شيء بالنسبة إليّ، فهي زميلتي في المستشفى، ومساعدتي في معمل الدكتور «فضالي»، وسكرتيرتي الخاصة، حيث دأبت على ترتيب مكتبي، وتجميع أوراقتي، وفهرسة ملفاتي، خاصة فيما يتعلق باليوجينيا . والأكثر من ذلك، وكيل محامي، تقوم بتجميع القضايا التي تدور حيثياتها حول العيب بالهندسة الوراثية وزراعة الجينات بما يخالف الشرع والقانون، وتوقيات وأماكن انعقادها، والموقف القانوني لكل قضية، وأسماء المحامين الذين يمسكون هذه القضايا . كانت «نيللي» تجد سعادتها، وهي تقوم بهذا الدور أيما سعادة .

بات معروفاً لدى الجميع أن شيئاً خفياً ينمو بيننا، حتى وضعنا حدًّا للتطفل الزائد من الأصدقاء، واعترف كلُّ منا للآخر بمكنون نفسه .

- أحبك يا نيللي .

أطرقت في خجل وارتسمت على شفيتها ابتسامة عذبة، حتى جاءت لحظة؛ لم نحسب لها حساباً تهيأت لنا الظروف، فتلاقت شفاهنا في قبلاات محمومة دفعتنا إلى عناق طويل حار.

لكنني لم أكن أدري أن بيضات العقارب تكمن في دفاء السعادة، وأن موعد الفقس قد حان، فقد مر أسبوع لم تأت فيه «نييلي» إلى مركز الدكتور «فضالي». وكلما حاولت الاتصال بها أعطى هاتفها إشعاراً بأنه خارج الخدمة.



لم تمض سوى ساعات، حتى ظهر جيل جديد من الفيروسات، يحمل صفة جديدة، فلم يعد المتحور يصيب الرئة أو يجففها، بل صار معداً ليصيب أي عضو من أعضاء الجسم، فظهرت أعراض جديدة لتليفات مخيفة راحت تنهش الكبد والكلى والقلب، وظهرت حالات لسكتات دماغية مفاجئة، كانت هذه نقلة نوعية مفاجئة لتطور الفيروس؛ «فيروس سي»؛ الذي وضعته بيدي في خلايا «الوتار»؛ هو نفسه لكنه اكتسب خواص مختلفة، بعد أن انتزع منه عمداً «كاس ٩» ووضع مكانه جين جديد، جعل الفيروس يهاجم أي عضو بشكل عشوائي ويقضي عليه. وبذلك بدأت الحرب تأخذ منحى جديداً.

وقفت عاجزاً بعض الوقت أمام هذه الفوضى الفيروسية، وقد أصاب عقلي الكلل والعجز، وأنا أرى العشرات من الضحايا يتساقطون كل يوم، بل كل ساعة. مضت الساعات وأنا منكب على شاشة المجهر الإلكتروني، أراقب هذا الإنزيم الغامض، أحلله وأجري عليه تجاربي،

أحاول انتزاعه من داخل الشريط الوراثي للفيروس الذي لصق فيه، لكنه لم يستجب لعمليات القص التي أجريتها عليه. لاحظ البروفيسور «فضالي» حيرتي، وأنا أقف أمام شاشة المجهر الإلكتروني، فوضع يده على كتفي وهو يقول:

- هل جربت استخدام تقنية المقص الجيني «كريسبر» لقص هذا الإنزيم العجيب؟

أجبتُه وعينا يترقب الفيروس على الشاشة:

- مع الأسف لم يبد أي نتائج، وكأنه ربط بكود خاص أو رقم سري يستعصي عليه فك الارتباط بينه وبين الجين. من الواضح أن عملية لصق الإنزيم الجديد تمت بتقنية أكثر تقدماً، وإنزيم مختلف هذه المرة. - الإنزيمات تتكون من أحماض أمينية هي التي تشيء البروتينات، وهي المكوّن الأساسي لأي إنزيم؟ بالتأكيد ستجد السر إما في الأحماض الأمينية أو في البروتينات.

- لكن قدرة هذا الإنزيم على تحفيز وزيادة سرعة التفاعلات الكيميائية داخل الخلايا الحيويّة في الجسم، تفوق الإنزيمات العادية المعروفة يا دكتور «فضالي». وهذا الإنزيم بالتحديد به بعض الانحناءات التي تغير من شكله ووظيفته، علاوة على هذا القفل الموجود في نهاية ارتباط الإنزيم.

هز الدكتور «فضالي» رأسه وهو يقول بمرارة:

- أنت إذن بحاجة إلى مصلح مفاتيح وأقفال وليس بروفيسور في الوراثة.

تركني ومازلت أنظر إلى الشاشة:

- معك حق يا دكتور «فضالي»، لماذا أبحث عنه كجزيء بروتيني حيوي، أليس من الجائز أن يكون هذا الإنزيم مبرمجاً؟

في هذه اللحظة خطر لي خاطر كأنه منحة من السماء؛ هبطت على عقلي فجأة، في هذا الجو المشحون بالقلق والتوتر. رحت أعدو خلف الاحتمال المستحيل، بقلب تخفق نبضاته، وعقل تتسارع أفكاره، يحدوني الأمل والرجاء، وكأن البشرية تتعلق بأطراف أصابعي وحافة إبصاري، وكلما اقتربت من فرجة باب، أجدها سدا منيعا، وما أنا سوى فأر وقع في متاهة عسيرة. لم أياس ولم أكل، وكلما فشلت زادني الحماس قوةً والعناد تشبثاً؛ للوصول إلى الحقيقة دفعاً، وفي لحظة لا يمكن قياسها، فتح القفل المغلق وانفجح الباب على الحقيقة المدوية. ووجدت نفسي أصرخ عالياً وأنا قابع بمفردي ساعات طويلة. فاتجه نحوي البروفيسور «فضالي» وهو يسأل:

- ماذا هناك؟

- وجدتها يا دكتور «فضالي». الإنزيم متصل من طرفه بشريحة إلكترونية دقيقة للغاية تحمل داخلها كل المعلومات والأوامر التي تجعل الفيروس أشد شراسة.

هنأني الدكتور «فضالي» ثم سألني:

- وماذا تنوي أن تفعل؟

- لا بد من رد قوي سيزلزل العالم أجمع، وسيكشف هؤلاء اليوجينيين على حقيقتهم ومن وراءهم.

دار الدكتور «فضالي» حولي وقد عبس وجهه وصاح:

- لكن حذار يا «ناجي». هؤلاء اليوجينيون وراءهم عقول جبارة  
وكيانات لا يستهان بها، وأخشى أن يكون ردهم غير متوقع.

- اطمئن يا دكتور «فضالي»، فأنا تلميذك النجيب، لقد تمكنت  
من قص الخاصية الجديدة، ووضعت إنزيماً آخر ربطته بشريحة  
إلكترونية دقيقة، وربطتها بكود خاص، بحيث لا تقبل أي تعديلات  
أخرى على الفيروس.

اقترب مني الدكتور فضالي وهمس:

- أرجو ألا تخبر أحداً باكتشافك الجديد هذا حتى أقرب الأقربين.

هل فهمتني

أومأت دون أن أرد، وانتظرت بقلب خافق نتيجة التجربة، ففي  
مكان ما داخل هذه القرية الصغيرة المسماة بكوكب الأرض، يوجد  
عقل يوجيني شرير، يحاول إفساد ما أفعله، وستمتد يده إلى هذا  
الإنزيم لمحاولة انتزاعه أو العبث به.

وبالفعل؛ حدث ما حذرني منه الدكتور «فضالي»، فقد تم فك  
الرقم الكودي، وإيقاف عمل المصل، مما أدى إلى تفشي الوباء من  
جديد بشكل خطير، وسقوط العشرات من الضحايا. قامت الدنيا  
ولم تقعد، فقد أعلنت الدوائر الطبية والصحفية في كل مكان أن  
السبب في عودة الوباء، هو اللقاح الجديد «كاس ٩»، الذي أعدته،  
وبين يوم وليلة صار الذين كانوا يهتفون باسمي بالأمس، هم أول من  
طالبوا بمحاكمتي وإعدامي، ووجدت نفسي مدانا بآثام البشرية كلها،

والأكثر من ذلك أن بعض الدول طالبت بتسليمي لمحاكمتي على أراضيها، لأنني تسببت في مقتل العشرات من رعاياها .

في هذه الأثناء زارني شخص لم أتوقع زيارته، «شادي أمين» صديق الصبا وزميل الجامعة، شيطان «أورورا» العتيد، منذ عدت من الخارج لم نلتق، مرت أكثر من سبع سنوات منذ رأيتة آخر مرة، تغير قليلا، فقد انحسر بعض الشعر عن مقدمة رأسه متجها إلى رأس أبيه الصلعاء، وأطلت شعيرات بيضاء من فوديه، جعلته أكثر وقاراً واتزاناً، غير هذا الصبي الأهوج اللزج. لم أكن تخلصت بعد من الانطباع السيء المترسب بداخلي عنه، لكنني في عز أزمتي كنت بحاجة إلى من يذكرني بزمان المراهقة والفتوة اللذيذ، ولهونا وهزرننا ومغامراتنا، فوجدت نفسي أندفع نحوه معانقاً، بينما كان ينظر لي متأثراً وهو يقول بصوت حشرجه الألم والإشفاق:

- هون عليك يا صديقي. مقضية بإذن الله.

يسكت قليلاً مطرقاً وراح يسأل:

- وكلت محامياً؟

- ليس بعد. الجرح ما زال جديداً، ومع ذلك الأمور تتسارع، ولا

أدري ماذا تخبئه لي الأيام القادمة.

- هل لديك مانع أن أكون محاميك؟ أنا متطوع في هذه القضية

بلا أجر، وتأكد أنك ستحصل على البراءة، اعمل لي توكيلاً وضع في بطنك بطيخة صيفي.

هاجت نفسي ورحت أحدثه بتأثر:

- والله يا «شادي» كل ما يهمني الضحايا الذين يتساقطون كل يوم  
بلا ذنب.

أشاح بوجهه وهو يقول:

- يا سيدي. أنت مغسل وضامن جنة؟ هذا قدرهم. المهم جهز  
لي أوراق القضية بكل تفاصيلها. لا تغفل شيئاً. أريد أن أعد ملفاً يليق  
بك لأعرضه على هيئة المحكمة، واطمئن. براءة بإذن الله.

لم تمض غير أيام قلائل، وفوجئت بشادي قد قام بنشر كل ما  
أعطيته من بيانات ومعلومات ووثائق مهمة على صفحات التواصل  
الاجتماعي، وقاد حملة صحفية وإعلامية وقانونية؛ متهماً إياي بأنني  
نشرت الفيروس من أجل الحصول على الشهرة والمال، مضحياً  
بآلاف الضحايا. مما أسهم في تأجيج الرأي العام ضدي. وهذا  
ما عجل بإلقاء القبض علي واعتقالي.

(٢٩)

## اعتقال

لحظة إلقاء القبض علي لم تكن ككل اللحظات، قبلها انتابتي الكوابيس المزعجة طوال الليل، ولا سيَّما كابوس الحريق والكائنات المجهرية التي ترقص وسط النار وتنتشر انتشار النار في الهشيم، وراح يتكرر أكثر من مرة، حتى انتفضت من نومي ضائق الصدر أتتفس بصعوبة، وما كاد شعاع الشمس الوليد يخمش رداء الليل ليبزغ نهار أليم، حتى فوجئت بدق متواصل على الباب، فتحت ليندفع عدد من الضباط وعشرات الجنود طوقوني من كل جانب، ووضعوا الكلابشات في يدي، واقتادوني معهم، ومع كل خطوة أجد العديد من الجنود مدججين بالسلاح، وأمام البناية انتشرت قوات الشرطة بكثافة، ووجدت أرتالاً من عربات الأمن تصطف بطول الشارع، لا أدري لم كل هذا؟ ولو اقتصر الأمر على جنديين لسلمت لهما نفسي طواعية ولما حاولت الهرب؛ وكان بإمكانني الهرب قبل ذلك؛ لكنني أهرب مم وإلى أين؟

كان في انتظاري بالخارج، كاميرات الصحفيين والمصورين، ومراسلي المحطات التليفزيونية والأقمار الصناعية، لبث لحظة القبض على المجرم الدولي الشهير «ناجي خلوصي» المتهم بتسريب فيروس، مخلفاً وباءً فتاكاً، حصد آلاف البشر من جميع أنحاء العالم.

تم دفعي داخل عربة مصفحة وأغلق علي بابها الخلفي، وانطلق الرتل وهو ييزأر في اتجاه مكان الاعتقال السري الذي أعد خصيصاً لي. فقد كانت التهم كثيرة أكثر من أن يتحملها إنسان.



بالرغم من تضاؤل الأمل أمام عيني في حصولي على البراءة، في القضية التي شغلت الرأي العام والتي عرفت بقضية «اليوجينيا»، لكن ما هون علي وقوف بعض الأشخاص بجانبني وعلى رأسهم أستاذي الدكتور «فضالي»، فقد زارني ليؤازرني ويشد من عضدي، ثم مال علي وهمس في أذني بصوت خفيض:

- اطمئن يا «ناجي»، فقد أعددت فريقاً من الباحثين على أعلى مستوى، لدراسة أعراض المتحور «يوجينيا»، فلدي شك أن يكون هناك تغيير خفي، قد أجري عليه، ولم يظهره الفحص الميكروسكوبي. أوامات مؤيدا ثم سألته متلهفاً:

- أليست هناك أية معلومات عن «نيللي فؤاد»؟ لقد اختفت منذ انتشار الوباء، وكنت أتوقع زيارتها، لكنها لم تترني. هز رأسه يائساً:

- مع الأسف، لا أحد يعرف عنها شيئاً.
- كم أخشى عليها يا دكتور «فضالي».



شخص آخر زارني في المعتقل وكان لزيارته وقع كبير على نفسي، كانت أمي؛ الإلهة الطيبة، ما إن رأيتها لم أستطع كبح دموعي التي راحت تهطل من عيني، ضمتني إليها، وراحت تقول من بين دموعها: - أعلم يا ناجي أنك بريء، ولا ذنب لك فيما جرى، لكنك دفعت إليه دفعاً، وهناك من اتفقوا عليك ليسقطوك، لكنك لهم بالمرصاد، ستقف على قدميك وستواجههم، وسوف تنتصر عليهم. هذه الزيارة هي من جعلتني أفكر في الهروب منذ الوهلة الأولى.

(٣٠)

## زنزانة ٧

بين شهيق وزفير يمضي دهر من الزمان متلكئاً وثيداً، ملقياً  
على الوجود سحابة ثقيلة من الضجر والسأم، تكتم الأنفاس وتزهق  
الأرواح، تتداعى الوجوه أمام عيني كتماثيل محطمة تنهار الواحد تلو  
الآخر، ولم يبق سوى تمثال واحد في انتظار ضربة فأس أو صرخة  
معول، أمثل لها طائعاً. يخرجني صوت أجشٍّ آتٍ من جُبِّ أفعى:

- «ناجي خلوصي».

وكان النداء ارتخاءً لحبل مشدود على عنقي، أصيح وأنا ألتقط  
أنفاساً مكتومة:

- أفندم.

ركلة قدم قاسية أطاحت بي، لأتكوم بجوار هياكل آدمية؛ أدامها  
القهر وأعيهاها الألم، وسمعت الصوت الأجش يقول بنفس الفحيح:

- زنزانة ٧.

زنزانة (٧)، ضيقة كالقبر، موحشة كالموت، جدرانها صماء،  
صفراء فاقع لونها، لكنها لا تسر الناظرين. ماذا تعني الحروف  
والأرقام؟ ما هي إلا طلاسمة وهمية، أو ربما تماثيل سرمدية تحمل  
أكواداً غامضة وشيفرات سرية، زنزانة (٧)؛ ليست أكثر من محطات

تعذيب وأنفاق تكدير. هذا هو عالمي الجديد، الذي ينبغي أن أعيش فيه بعض الوقت أو أموت فيه إلى الأبد .

ربما أكون أنا الكائن الوحيد على الأرض الذي غيروا كيانه وهويته وتركيبه العقلي والنفسي والجيني. فلو دخلت معسكرات التعذيب، وغرف الموت البطيء، ووضعت على أجهزة الصعق والحرق والسحق، وتعرضت لموجات مفاجئة من الإشعاعات والكيماويات والمسح الدماغي؛ لانتزاع اعترافات عن تهم لم ترتكبها، فتعترف ليس طوعاً، وإنما طمعاً في التقاط الأنفاس، لأدركت أن الحياة لا قيمة لها، وأن بعض الموت حياة. وهل سيتركوني أموت لأفر بروحي من هذا العذاب المنصوب، لو استطاعوا أن يخرجوا أنفاسي نفساً نفساً، ثم يعيدونها إلى صدري ثانية قبل أن ألفظ آخرها لفعالوا. فالموت في غرف التعذيب هبة، والقتل منحة.



يا لها من ملهاة مأساوية لم يحدث مثلها في التاريخ، كنت أراقب من محبسي خط سير الحرب وتداعياتها بقلب ممزق، فأنا أول صانع لهذا السلاح الرهيب، هذه الحرب البشعة التي وضعت أنا فيروسها الأول في خلايا المسجون الهارب «إسماعيل الوتار»، فلم يكن أكثر من عود ثقاب، أطلق في كومة ضخمة من القش. ويعد أن كنت أعد نفسي لمحاربة اليوجينيين، أصبحت يوجينيا أكثر منهم، وليس ببعيد أن تصل إلي فيروساتهم وأنا داخل سجنوني دون عناء. أي مصير ينتظره العالم، وأية كارثة نحن ذاهبون إليها. ما زالت حرب «اليوجينيا» على

أشدها حتى بعد دخولي السجن، ويبدو أن اليوجينيين وجدوا من اختلافاتي فرصة لتطوير الفيروس وتحويره كما يحلو لهم ودون مقاومة.

تلقت حولي داخل السجن، الجميع نيام يتصاعد شخيرهم حتى غطى على أنفاسي اللاهثة، كنا أحد عشر سجيناً داخل العنبر، يتمددون على أسرة بدورين، أشغل أنا أعلى السرير الأوسط على اليمين، بينما «صباغ» حكمدار السجن على سرير بمفرده في ركن قصي في آخر العنبر اتقاء لشره، فهو لا يسمح لأحد أن ينام فوقه، ويأبى الجميع أن يناموا تحته، وبالرغم من ذلك تعاطف معي دوناً عن زملاء العنبر، ومنذ اليوم الأول صادفته اتقاء لزيانية السجن.

حكم عليه بالإعدام في جريمة قتل، لا يعرف القتل ولا عمره التقاه، لكن هكذا الأقدار دفعت برقبته إلى حبال المشنقة، وينتظر تنفيذ الحكم بين لحظة وأخرى، لكنني لم أتخيل أن هذا المجرم بداخله هذا القلب وهذه الحكمة، فكل كلامه نصائح ونظريات في التعامل الإنساني، لو كان طبقها على نفسه، ما أقدم على ارتكاب هذه الجريمة الشنعاء. لكن يبدو أن ذلك الجين الغامض «ماو» وصل إلى خلاياه، مثلما وصل إلى الكثيرين في جميع أنحاء العالم.

كان يغط في نوم عميق فاقتربت منه، هزرتة بيدي، فتح عينيه وهو يصيح بصوته الأجلش:

- هل يوجد شيء؟

همست:

- أجل هناك أمر أود أن أحادثك فيه؟

- نفخ وهو يدير جسده نحو الحائط:
- ألا ينتظر هذا الأمر حتى الصباح؟
- لا. الأمر لا يحتمل التأجيل.
- قل ما عندك.
- سأهرب.
- صاح بصوت عال:
- تهرب؟
- أمسكت ذراعه:
- بقي أن تنادي «حرس سلاح» وتسلمني لهم.
- غمغم وهو يفرك عينيه:
- لا مؤاخذة. لكن أتفكر في الهرب وليس لك معنا سوى ثلاثة أسابيع.
- ثم سكت قليلاً وراح يقول بصوت خفيض:
- الهرب ليس سهلاً كما تتصور، ويحتاج إلى مصاريف وترتيبات وإجراءات.
- اقتربت منه:
- كل هذا يمكن تدبيره، حاول أن تفهمني يا «صباغ»، أنا لا أريد أن أهرب طمعاً في الحرية، وإنما لأمنع كارثة، الوباء ينتشر في الخارج بشكل رهيب ولن يوقفه أحد غيري. أعلم أن حياتي ليست بيدي وقد يصل إلي فيروسهم في أي وقت، لذلك يجب أن أطفئ النار المشتعلة قبل أن يتأجج سعيها.

- أوماً مقتتعا بما أقول، ثم هرش شاربه الكث المتصل بذقنه:
- اتركني أسبوعين ثلاثة أكون دبرت أموري.
  - الأمر لا يحتمل التأجيل، أريد أن أخرج من هنا غداً.
  - تركني واستدار ثانية نحو الحائط وهو يقول بسخرية:  
- إذن دعني أوقع لك تصريح الخروج.



(٣١)

## الهروب

ظلت فكرة الهروب تلح علي طوال إقامتي في السجن، ومنذ اليوم الأول لي، ولم يستطع «صباغ» أن يثبيني عن عزمي أو يوجّل تنفيذ قراري، قائلاً بصوته الرخيم:

- اصرف نظري يا صاحبي، فعالة السجن هذه الأيام ليست على ما يرام، والشدة على المساجين شديدة.

تركته ورحت أقدر ارتفاع السور، وما عليه من زجاج مكسور، وأسلاك شائكة، وأعداد الحرس المرابضين على البوابات، فوجدت من الصعوبة بمكان أن أظفر بحريتي في ظل هذه الأجواء، وفي الوقت نفسه كنت أتابع تطور الفيروس العنيد وأجياله اللاحقة فأنزعج، هي حرب إبادة لا شك في هذا.

وبينما كنت جالساً في صالة الطعام أفكر في المستحيل وأحلم بالسراب، رزع «صباغ» جسده بجواري وهو يدفع طبقه الحديدي على المائدة، ثم مال على أذني قائلاً بصوت خفيض:

- ستهرب الليلة.

صحت غير مصدق:

- الليلة؟

أمسك بيدي:

- اخفض صوتك. غيرت رأيك؟

- بالعكس. لكن كيف؟

- سأفتح دماغك. وستدخل المستشفى وهناك من سيتولى تهريبك.

- أليست هناك طريقة أخرى؟

- للضرورة أحكام.

- وما يدريني أن رأسك لن تميتني؟

- رأسي تعرف طريقها جيداً وتتقدر الضربة القاتلة من الضربة الآمنة. كل ما هنالك ثلاث غرز ودمتم.

يسكت قليلاً ليتناول قطعة ضخمة من اللحم، ثم يسأل من بين الطعام الذي يملأ فمه:

- ها استبيننا؟

- استبيننا.

ما كدت أنتهي حتى ارتفع صوته زاعقا وهو يلقي كوب الماء في وجهي:

- أنا مرة يا ابن الندابة، سأجعل أمك تندب عليك، وسأعرفك من يكون «صباغ أبو الروس».

ووجدت جسدي يطير في فراغ مطعم السجن ويسقط على الأرض، حاول بعض المساجين أن يحولوا بيني وبينه، وفي لحظة واحدة تحول

المطعم إلى ميدان معركة تطايرت فيها الأطباق والأكواب والملاعق، واشتبك العديد من المساجين بعضهم مع بعض، وتدخل حراس السجن وهم يطوحون سياطهم في الهواء، ويضربون بها الأجساد التي تطالها. فانتهاز الفرصة وأمسك برأسي من الخلف ودفع فيها رأسه الضخم التي تشبه الدبابة. كانت ضربة نجلاء شاهدت فيها ألوان الطيف السبعة، وسمعت صفيراً يشبه العواء، ولم أدر بشيء بعد ذلك. أفقت لأجد نفسي ممدداً على فراش في غرفة خافتة الإضاءة، لم أستطع أن أتبين معالمها، ما زال الطنين يئز في أذني، وأحسست بآلام شديدة في رأسي، عندما تحسستها وجدت رباطاً دائرياً يخفي وجهي كله، ويذاً تمسك يدي وصوتاً أنثوياً يقول:

- لا تحاول أن تزيل الرباط، فالجرح ما زال حيا، أجرينا لك جراحة خمس غرز في الجبهة.

سألتها:

- لكنني لا أدري ماذا حدث؟ ولا من أكون؟ كأن حدث لي فقدان ذاكرة؟ هل وقع لي حادث؟  
- لا عليك غدا ستكون أفضل.

ثم تركت الحجر، وأغلقت بابها، فعاد الظلام والسكون يلفني. وبينما أنا كذلك التقطت أنفي رائحة غريبة، في البداية ظننت أنها من تأثير البنج الذي أعطي لي أثناء خياطة الجرح، لكن الرائحة بدأت تزيد مع صوت أقدام تروح وتجيء مسرعة بالخارج، ما لبثت أن تحولت إلى صراخ وأصوات تصيح:

- حريق . حريق .

ورأيت من خلال زجاج الباب، ألسنة نيران تتمايل وتتماوج، حتى شعرت أنها تقترب من الغرفة، وبدأت رائحة الدخان تخنقني. فجأة فتح الباب، ودخل عملاق ملثم حملني دون أن يلوي على شيء، وانطلق بي خارجاً من الحجرة، بينما كانت النيران تملأ المكان.

(٣٢)

## عين الحياة

«أنا الخلل الذي يصنع الجدل بين النقص والكمال، أنا الجلل في عتمة الوجل يعانق الجمال، أنا الخطر عند اكتمال القمر في وهدة الخيال».

«إننا نتاج جيناتنا والسبب فيما نرتكبه كل لحظة من جرائم وكوارث؛ أن جيناتنا هي التي تدفعنا إلى ذلك. فإذا كان بعض المنجمين يعتقدون أن مستقبلنا مكتوب في النجوم. فأؤكد لك الآن أنه مكتوب داخل جيناتنا».

كنت أردد هذه الكلمات وأنا بين النوم واليقظة كمرثية أو أرجوزة ملحمية، أحاول أن أتذكر من قائلها؟ ومتى سمعتها؟ بينما تتوالى على عيني خيالات لوجوه أعرفها جيداً، لكنني لا أذكرها وكأنني أصبحت ذاكرة منقوصة ترى نصف الحقيقة، فلم أدر إن كنت ما أراه هو جزءاً من منامي، أو بعضاً من أحلام يقظتي.

أين أنا؟

أفتح عيني ثانية. أرى كل شيء حولي كأنه ضباب ودخان ولا أجد إنساناً قط. أحاول الوقوف فلا أستطيع، ما زلت أشعر بصداع رهيب، ونفس الدوار؟ لكنني كنت قد التقطت بعضاً من ذاكرتي المنسية.

أصبح بصوت عال:

- هل أحد هنا؟ هل أحد هنا؟ يا . .
- أحاول أن أتذكر من كانت تحدثني قبل أن تأخذني إغفاءة:
- أجل رولا . رولا . رولا .
- سمعت داخل أذني ذلك الرنين الخفيف وصوت رولا:
- حمدا لله على سلامتك دكتور «ناجي خلوصي». أرجو أن تكون قد نمت جيدا . يسعدنا انضمامك إلينا أخيراً .
- صحت رغما عني:
- أنا لم أنضم إلى أحد . لا بد من الخروج من هنا .
- ليس الآن . لم يسمح لك بالخروج بعد .
- اتجهت في عصبية نحو الباب حاولت فتحه دون جدوى، ألمح عصا ملقاة على الأرض ألتقطها وأنا أصيح:
- سوف أخرج من هنا .
- يأتيني صوت «رولا» مهدتاً:
- أرجوك دكتور «ناجي» لا تفعل ذلك، ولا تحاول الخروج من هنا .
- لماذا؟
- المكان ليس آمناً بالخارج. أو بمعنى أصح هناك خطر على حياتك لو حاولت الخروج.
- وجدت من الأفضل أن أستميلها:
- آنسة «رولا». هل تريني؟

- أجل أراك وأسمعك جيداً .
- لماذا هذا الهراء إذن عبر الهاتف؟ لماذا لا تأتي وتحدث وجهاً لوجه .
- في الوقت الحالي لا أستطيع .
- لماذا؟
- قلتها بضعف؛ فأجابت بصوت خفيض:
- يجب أولاً الاتصال بالنظام .
- صحت بانفعال وهياج:
- أي نظام يمكن أن يمنعني من الخروج . سوف أخرج وليحدث ما يحدث .
- راحت تلح في محاولة لاسترضائي:
- أرجوك دكتور «ناجي» لا تفعل هذا من أجل سلامتك . بل من أجل سلامتنا جميعاً .
- أتجه نحو الباب وأنا أمسك العصا أرفعها في اتجاه الجزء الزجاجي لكسره، فجأة أصابتي صعقة كهربية شملت جسدي كله، وسقطت على الأرض وأنا أصبح من شدة الألم، أحاول أن أنهض بينما تحدثني في استعطاف:
- «ناجي». حاولت أن أحذرك . لكنك لم تنتصت لي . المكان خطير جداً بالخارج . ونحن لا نريد أن نسبب لك أي أذى .
- من أنتم؟

- هذا ليس مهماً الآن؛ المهم أن تفهم بعض القواعد الأساسية. يمكنك التحرك في حدود المكان الذي أنت فيه، لكن أي محاولة للخروج من المكان، ستكون لها عواقب وخيمة.

أصبح بانفعال:

- ماذا تريدون مني؟

- أنا «رولا» حليفتك ولست عدوتك. نريد أن نعمل معاً. أن نتعاون معاً. اصعد إلى الطابق الثاني وسوف أشرح لك كل شيء.

لمحت درجاً يؤدي إلى الطابق الثاني، تحاملت على نفسي وصعدت، إضاءة خافتة لا تظهر معالم الأشياء، ممر طويل يحتوي على بعض الغرف وما زالت «رولا» تحدثني:

- نحن فريق عمل واحد؛ قد تكون طريقتنا مختلفة أو غريبة بالنسبة لك، لكن هدفنا واحد، تحقيق السلام ونبذ العنف والعدوان. أليس هذا هو هدفك أنت أيضاً. نحن بحاجة إليك دكتور «ناجي».

أتأمل المكان بشيء من الريبة والغموض. فجأة يضاء المكان من خلال إضاءة ذاتية بالجدران، وأول ما استرعى انتباهي، ذلك الفرجار المتعامد على الزاوية القائمة، وبداخله حرف (G). أسألها بانفعال:

- ما هذا؟

- منزلك الجديد، أو بالأحرى معملك.

أجد نفسي داخل معمل مجهز بكل شيء، جهاز الميكروسكوب متصل بعدد من الشاشات، بعض الأنابيب والأواني. أعيد السؤال بعصبية أكثر:

- لا أسأل عن المكان، وإنما هذه الرموز والأشكال الغريبة التي أراها في كل مكان هنا وأسفل، ولا أدري أين رأيتها قبل اليوم؟  
راحت تتحدث بلهجة ودية وهي تقول:

- لا تهتم بالرموز والأشكال المهم الهدف. وبالتدريج سوف تفهم كل شيء في حينه، لكن تستطيع أن تعتبر نفسك داخل مؤسسة أو منظمة دولية، نطلق على أنفسنا «عين الحياة»، تلك العين التي تمنح الحياة لكل من يسكن في ضيها. تقوم على فكرة البناء، والبناء هنا ليس معناه فقط البناء الهندسي، وإنما بناء الإنسان حضارياً وأخلاقياً، البناء بمعناه الواسع. هدفنا تحقيق السلام في العالم، في الوجود، ولن يتحقق السلام إلا بحصولك على الحرية.  
لوهلة شعرت أن الصوت ابتعد، كأن الاتصال قد انقطع بيننا،  
فرحت أسألك:

- «رولا». «رولا». هل ما زلت معي؟

ردت بوله:

- ولن أتركك ما حييت؟

صحت مخففاً من لهجتي:

- اسمعيني جيداً أنسة «رولا». بودي أن نتعاون معاً. لكنني أريد أن أخبرك بشيء مهم، بل أخبركم جميعاً. لا فائدة مما تفعلونه معي. لأنني لا أتذكر شيئاً على الإطلاق.

- بل ستتذكر كل شيء. هذه حالة مؤقتة ونحن نعلم جيداً متى

تغيب الذاكرة ومتى تعود؟ حسب إرادتنا.

- نعم أتذكر اسمي وعملي كطبيب، لكن جميع التفاصيل الأخرى غائبة خلف سحب النسيان.

تسكت قليلاً ثم تقول:

- إذن سنتحدث فيما بعد . عندما تعود إليك الذاكرة كاملة.

انفجرت ضاحكاً بمرارة وقد بدأت أفهم بعض الشيء:

- أرجو أن تخبري زملاءك أنهم في مشكلة حقيقية، فلن أستطيع أن أفعل لهم شيئاً . كما يمكنني تدمير هذا المكان الآن.

قلت هذا وأنا أتوجه بالعصا نحو أحد الصناديق فصرخت:

- انتظر ناجي . أتعرف ماذا يوجد هنا؟

- ماذا؟

- أخطر فيروسين عرفتهما البشرية حتى الآن . أنت من قمت بإنشائهما . الفيروس «يوجينيا» . والجين «ماو» جين القتل والمجرمين، كان حادثاً رهيباً تحور الفيروس عدة مرات، وقتل المئات، غير آلاف المصابين في حالة خطيرة، ومن غادر منهم المستشفيات يعاني تداعيات الإصابة، وظهور العديد من القصور في وظائف الجسم . أما الجين «ماو» فمنذ صنعته، وهو ينسخ نفسه آلاف المرات، ليحول البشر إلى وحوش ضارية تقتل بعضها بعضاً .

أتساءل غير مصدق:

- أمعقول . أنا فعلت ذلك؟

- لقد حاولت تطوير نوع معين من الفيروسات لإنقاذ البشرية، وبدلاً من إنقاذ الجنس البشري، تحول الفيروس إلى شيء لم نره من

قبل، إلى حد لم يتصوره إنسان. سقطت الأعداد بشكل تعذر قياسه. لذلك عليك البقاء معنا، مازالت أمامك الفرصة لإصلاح الأمر. بإمكانك فعل شيء ما دمت على قيد الحياة.

كنت أراقب إحدى الشاشات وعليها صورة فيديو لأحد الفيروسات، وهو ينقسم بشكل رهيب، فجأة شعرت بجسم يمرق خلفي ويخرج من الباب الجانبي. صحت وأنا أنتفض:

- هيبهه. من هنا؟

عاودني صوت «رولا» من جديد محذراً:

- «ناجي». لا تلق بالأ. ركز في أبحاثك. في تجاربك.

خرجت من المختبر وأنا أصيح:

- من هنا؟

بينما ما زال صوت «رولا» يصيح في أذني:

- لا يوجد أحد هنا. نحن نريدك في المختبر. عد إلى المختبر

يا «ناجي». أنت تعرض نفسك وحياتك للخطر.

لا أستجيب. أخرج من المختبر باحثاً عن الشبح الذي مرق خلفي

واختفى. بينما ما زال صوت «رولا» يناديني:

- عد إلى المختبر يا «ناجي» أنت تضيع وقتك سدى.

واصلت انطلاقي؛ حتى تمكنت من الخروج من المختبر عبر ممر

نقلني إلى مبنى آخر، وسمعت صوتاً تجاه الدرج، خطوات أقدام

في الأسفل، اتجهت نحوها، لمحت ظلاً على الجدران، الظل لفتاة

انطلقت خلفها . مطاردة داخل المختبر في أثر الفتاة، لمحت أجزاء منها . شعرها الطويل، جزء من بنطالها الجينز. اتجهت إلى مبنى صغير بجوار المختبر.

ما زالت «رولا» تصيح بانفعال، وكلما ابتعدت صوتها يخفت شيئاً فشيئاً:

- «ناجي خلوصي». عد إلى المختبر يا «ناجي». نحن نريدك في المختبر.

لم ألتفت إلى تعليماتها، دخلت مسرعاً خلف الفتاة. وجدت نفسي داخل قاعة فسيحة بها سلم يؤدي إلى الطابق الثاني، صعدهت في خطوات خاطفة، وجدت عدداً من الحجرات. وقفت أنادي بصوت عال:

- هيبويه. من هنا؟ من أنت؟

فجأة شعرت بذراع تلتف حول عنقي وتضغط عليه بقوة. أختنق، أحاول أن أتملص فلا أستطيع، اليد تضغط علي بقوة، أسمع صوت أنفاس في أذني، دون أن أتمكن من رؤية من يقيد حركتي، في حركة واحدة ضربت الجسم بكوعي بقوة في صدره، الجسم يترنح ويسقط على الأرض متأوها. أندفع نحوه، هي الفتاة التي كانت تجري في المختبر، كانت مولية وجهها أرضاً، ولا يبدو منها سوى شعرها، جذبتها نحوي بقوة. ليلتقي وجهانا. بينما استولت الدهشة علينا معاً. لا أصدق ما تراه عيناى، بينما أستعيد ذاكرتي شيئاً فشيئاً من ملامح وجهها، ورحت أصيح بانفعال:

- غير معقول. نيللي. «نيللي فؤاد»؟

(٣٣)

### المنطقة المظلمة

راح كل منا ينظر إلى الآخر في دهشة، بينما تتداعى ذكرياتنا، نتعرف على كلينا للمرة الأولى، أو كأن كلا منا يحاول أن يوقظ الآخر من سبات عميق. رحمت أناديبها لكي أتأكد أنها هي بالفعل:

- «نيللي». أنت «نيللي». أليس كذلك؟

تسألني وهي تتشبث بي:

- «ناجي». أمازلت على قيد الحياة؟

لم تتغير، نفس ملامحها، شعرها الطويل، وجهها الصنوبري الرقيق، عيناها الواسعتان ببريقهما الأخاذ، وأنفها الصغير وفمها الدقيق، لكن لا؛ أشياء كثيرة تغيرت فيها، فلم تكن في وجهها هذه الحدة، ولا في جبهتها هذه التقطية، وقد خبا البريق من عينيها، كأنها كانت نائمة واستيقظت الآن، أو منومة وتحاول التخلص من خدر النوم، ويبدو أنها لاحظت تغيراً في وجهي، فصاحت:

- «ناجي». ماذا فعلوا بك؟ أين شاربك وشعرك الطويل؟ وجهك

خبا ضوءه، جبهتك صارت منطفئة بعد أن كانت تتلألأ بحماس، عيناك غير عينيك اللتين كنت أرى فيهما المستقبل.

- لا أدري بالضبط. لكنني أشعر بشعور غريب، شيء ما كسر

بداخلي، وكأن عزمي قد فتر، وقوتي وهنت، أعيش بذاكرة منقوصة، هناك أشياء سقطت من الذاكرة، وأشياء ما زالت عالقة بذاكرتي، أتذكر الأحداث شيئاً فشيئاً .

- هذا مقصود .

قالتها باقتضاب ثم توقفت عن الكلام فجأة . أمسكت يدها في إلحاح:

- ماذا تعنين؟ يبدو أنك تعلمين شيئاً، أرجوك يا «نيللي»، أخبريني .  
ماذا حدث لي؟ تكلمي .

بدا على وجهها الارتباك وصاحت مسرعة:

- لنعد إلى المختبر . هيا بنا . هيا بنا الآن إلى المختبر . المختبر . انطلقت «نيللي» مسرعة إلى المختبر وأنا خلفها أحاول اللحاق بها، حتى إذا وصلت إلى هناك، نظرت داخل المختبر من خلال زجاج النافذة الخارجي، لمحت رجلاً يدخل فأسرعت «نيللي» بإيهامه بانشغالها ببعض التمرينات الرياضية، وهي تشير لي بيدها كي أتواري في ركن من المختبر . صاح الرجل محدثاً إياها :

- «نيللي». أين كنت؟ تحدثنا إليك من خلال الشريحة الداخلية لكنك لم تردني .

واصلت تمريناتها وراحت تجيبه:

- أهلا كابتن «بكر». كما ترى أقوم ببعض التمرينات الرياضية .

هل هناك شيء؟

- «رولا» تستدعيك إلى المنطقة المظلمة للأهمية.
- حسناً سأذهب إلى هناك.
- يهز الرجل كتفيه وينصرف، أسرع الخطا نحو «نيللي» وأنا أسألها:
- «نيللي». أريد أن أعرف. .
- «نيللي»؛ يبدو على وجهها القلق والحيرة، تغمز لي بعينها أن أكف عن الكلام، فأفهم على الفور أننا مراقبان. تشير إلي أن أتبعها دون أن أنبس.
- عبرنا ممرا طويلا يؤدي إلى بناية ثانية مكونة من ثلاثة طوابق، تبدو أصغر حجماً لكنها أكثر تقدماً، بدا ذلك من الأجهزة الحديثة التي أراها هنا وهناك، شاشات إلكترونية في كل مكان، وكأننا في محطة بث تليفزيوني متقدمة. دلفنا من الباب الرئيسي الذي فتح أوتوماتيكياً، ليستقبلنا سلم كهربائي نقلنا في ثوانٍ إلى الطابق الثاني. أخيراً دخلنا قاعة خافتة الإضاءة، جلسنا ونحن نلهث بينما نظرت «نيللي» لي وهي تقول:
- هنا توجد المنطقة المظلمة.
- بالرغم من الإضاءة الخافتة داخل المنطقة المظلمة، لكنها لم تكن معتمة تماماً كما يدل اسمها، وإنما الإضلام يتعلق بتوقف أجهزة البث والاتصال. بينما واصلت «نيللي»:
- نستطيع الآن أن نتكلم على راحتنا وبلا خوف، فهذا المكان محمي من أية موجات إلكترونية أو كهرومغناطيسية أو إشعاعية حتى لا تؤثر على نتائج الأبحاث.

عدت أسألها في شغف:

- نيلى أرجوك أخبريني ما هذا المكان الذي نحن فيه؟ وماذا فعلوا بنا؟ ومن هم هؤلاء؟ وماذا يريدون منا؟

وقفت «نيلى» تحديق في، ثم اندفعت نحوي معانقة إياي وهي تجهش:

- لا تتصور شعوري خلال الأيام الماضية. لقد ظننت أنك. أنك. تسكت عن الكلام فرحت أكمل:

- أني مت أليس كذلك؟

تهز رأسها بانفعال لتبعد عن مخيلها ذلك التصور البغيض:

- هذا ما نشرته الجرائد وتناقلته مواقع السوشيال ميديا، لكن كان قلبي يحدثني دائما أنك على قيد الحياة وأنا سنلتقي من جديد.

عدت أسألها بإلحاح:

- أين نحن يا «نيلى»؟

ولت وجهها إلى الناحية الأخرى وهي تقول بأسى:

- كما ترى؛ نحن في مختبر سري متقدم جدا للأبحاث الجينية والفيروسية، في منطقة غير معلومة، ضمن شبكة معملية ضخمة من مختبرات منتشرة في أنحاء العالم، متصلة فيما بينها إلكترونيا. تجرى هنا كافة الأبحاث والتجارب الجينية والفيروسية لتجربتها على البشر. للسيطرة عليهم والتحكم فيهم عن بعد جينيا وفيروسيا، بأساليب مستحدثة لا تخطر على بال إنسان، كسلب إرادات الناس

ومكونات شخصياتهم وتحريكهم كالدمى. هذه المعامل بمثابة معامل تفريخ بشرية، حيث يتم قولبة البشر. إنهم يتصورون أن الناس بعد إعادة تشكيلهم وإخضاعهم تحت سيطرتهم، سيكونون أكثر كفاءة وفعالية، مع اضطراهم للتنازل عن صفاتهم الآدمية.

قالت ذلك وهي تقودني داخل المنطقة المظلمة، حيث يسود السكون إلا من هسيس مبهم، لعله صادر من الأجهزة الإلكترونية المنتشرة في المكان. دلفنا داخل إحدى الغرف الداخلية، حيث تنتشر حضانات أشبه بحضانات الأطفال بينما واصلت:

- هنا توجد أجنة مخبرية، تم تفريخها بطرق معملية بعيداً عن تدخل البشر، بهدف إنتاج سلالات بشرية جديدة خالية من أية عيوب وراثية، لتكون النموذج الأمثل لإنسان العصر القادم.

لم أعلق؛ خرجت من الغرفة دون أن ألوي على شيء، حتى اجتزنا قاعة واسعة تراصت فيها أسرة أشبه بالتوابيت، عبارة عن صناديق زجاجية متصلة بعدد من الأجهزة، بداخل كل صندوق ترقد امرأة في سبات. سألتها:

- من هؤلاء؟

- إنهن مجموعة من النساء يحملن أمراضاً وراثية انتقلت إليهن جيلاً بعد جيل، يتم تعقيمهم جينياً للتخلص من كل الخلايا المعطوبة. شعرت بالاختناق؛ خرجت مسرعاً، سرنا بضع خطوات، حتى إذا مررنا من أمام إحدى الغرف، وجدت «نيللي» تتجاوزها عمداً؛ دون أن تدخلها، أمسكت يدها وأنا أسألتها:

- ماذا يوجد داخل هذه الغرفة؟

ردت وهي تتحوب بي بعيداً:

- لا شيء.

دفعني فضولي لمعرفة ما بداخل الغرفة، فتحتها بينما «نيللي» تلحق بي لمنعي من فتحها. دخلت لأجد سريراً واحداً عليه شخص متصل به العديد من الأجهزة، بينما مؤشرات الحياة المتصلة به تن في صمت، رحت أقترب منه لتتضح معالمه أكثر فأكثر، وجهه الحاد، شاربه الكث المتصل بلحيته المهوشة، بالرغم أن عينيه كانتا نصف مفتوحتين، لكن نظراته المخيفة كانت تطل من فرجتهما، صرخت:

- إنه إسماعيل. إسماعيل الوتار.

أطرقت مؤكدة:

- أجل هو الوتار، لم يهرب كما تظن، بل تم تهريبه لاقتناص فيروسك الرهيب «يوجينيا»، الذي وضعته داخله لتحميل عليه الجين «ماو»؛ جين المجرمين؛ وبثه ليصيب أكبر عدد من البشر.

تسكت قليلاً لتضيف:

- لقد صار هو نفسه معملاً بشريا لتجارب اليوجينيا.

كنت أستمع لها وأنا مندهش، غير مصدق ما أسمعه. خرجنا من المنطقة المظلمة وعدت أسألها:

- وما علاقتك بهم وكيف جئت إلى هنا؟

- مثلما جاؤوا بك. قبلها كنت في المستشفى، وفوجئت بثلاثة أشخاص يدخلون حجرتي، ثم وضعوا منديلاً على أنفي، غبت بعدها عن الوعي. أفقت لأجد نفسي هنا في هذا المكان، فاقدة الوعي والذاكرة. قاطعتها:

- نفس ما حدث معي بالضبط. أكلمي.

راحت تكمل دون أن تزايلها نبرة الأسي التي كانت تتحدث بها:

- لكنني اكتشفت أن أذنيّ تلتقطان أصواتاً بوضوح، علمت بعد ذلك أنهم وضعوا شريحة هاتفية داخل الفص الصدغي بجانب رأسي، ليتمكنوا من التواصل معي بحرية، ومن خلالها يتحدثون معنا ويبلغوننا بالأوامر المطلوبة. أخبروني بعد ذلك أنه قد تم تعييني لديهم كباحثة. قاطعتها ثانية وأنا اتحدث بجدّة:

- وكيف توافقين على العمل مع أناس لا تعرفينهم؟ لماذا لم تعترضني وتركي لهم المكان بعد إتمام شفائك؟

سكتت «نيللي» فترة من الوقت، ثم رفعت عينيها نحوي وهي تقول:

- لم أستطع.

صحت ثائراً:

- لماذا؟ هل أغروك بالمال إلى هذه الدرجة؟

ما زالت تنظر لي بعينين مدمعتين:

- ليس الأمر كما تتصور. لقد وجدت نفسي منقاداً إليهم، أنفذ

ما يطلبونه مني بلا إرادة.

- كيف هذا؟ هل مارسوا عليك التنويم المغناطيسي؟

- بل التنويم الجيني؟

- التنويم الجيني؟

- أجل يتحكمون في إرادتك عن طريق وضع شرائح دقيقة للغاية داخل جيناتنا، ثم يوجهوننا من خلالها. فيتحكمون في إرادتنا، وسوف يفعلون الشيء نفسه معك.

صرخت بانفعال:

- لن أفعل شيئاً حتى لو قتلوني.

- بل ستنفذ كل ما يطلبونه. إنهم يريدون منك تحضير الفيروس «يوجينيا»، والجين «ماو».

- لن أفعل.

أصيح في ثورة وأنا أخرج من المكان، تلحق «نيللي» بي في محاولة لتهدئتي.

- بل ستفعل. لقد أجريت لك عملية السيطرة الجينية بنجاح. وستنفذ كل ما يطلبونه منك. لم يعد الأمر باختيارك.

أنظر لها ملياً ثم أتجه نحو الباب الخارجي، ما إن فتحت الباب، حتى وجدت في صدري فوهة بندقية، ووجه يضطرم غضباً، وعينان تطقان شرراً. سألته:

- ماذا تريد؟

ما زال شاهراً سلاحه وسبابته على الزناد ويصيح بحزم:

- لا أريد أذيتكما . أريد فقط اللقاح .
- أي لقاح؟
- «كاس ٩» . ابني مريض بالفيروس «يوجين» الذي صنعته  
يا دكتور، وسوف يموت إذا لم يأخذ اللقاح «كاس ٩» .
- سألته:
- أ ما زال هناك من يعتقد أن «كاس ٩» لقاح شاف حقاً؟
- أجل، لقد مرضت بالفيروس وبرتت منه بفضل «كاس ٩» وكذلك  
زوجتي .
- تبادلت النظر أنا و«نيلى» التي وجهت حديثها للرجل:
- نتمنى لو نساعدك لكننا لا نستطيع الآن .
- الوقت المتبقي لا يكفي لحياة إبني . لكنه سيمكنني من قتلكما .  
رحت أقول محاولا التأثير عليه:
- يوجد معنا طبيب يحاول تحضير اللقاح «كاس ٩» لكننا بحاجة  
إلى من يحمينا .
- يبعد الرجل سلاحه عن صدرينا وهو يصيح بانفعال:
- أنا سوف أحميكما . هيا . اذهبا . اذهبا .

(٣٤)

## ذاكرة على كف ناعمة

عدنا إلى المختبر، وما زالت الشاشات المتصلة بالمجهر الإلكتروني، تعرض حركة الفيروسات وتداخلها من امتداد لانكماش لتكوير، وهي تتقسم في متواليات لا حصر لها، أحاول شحذ ذاكرتي، لكن جزءاً من الذاكرة قد توارى خلف سحب النسيان، نرتدي حلة خاصة مصنوعة من مادة بلاستيكية واقية من رأسينا إلى أخصص قدمينا، خضراء اللون وشفافة من ناحية الوجه حتى نرى ما نفعله، فبدوت أنا و«نيللي» كرائدين فضاء يحلقان فوق كوكب نائي، خارج مجرتنا سكة التبانة، تحكمننا قوانين غريبة لم نعتدها ولا نحفظ موادها، القانون الأساسي الذي يملئ علينا وننفذه طواعية؛ افعل ولا تفعل.

عندما وصلنا المختبر نفاجاً بالباب يغلق علينا. وأسمع من خلال السماع السرية «الشريحة» صوت «لورا» وهي تحدثني:

- دكتور «ناجي». دكتور «ناجي خلوصي». هل «نيللي» معك؟

لا أرد، فتسرع «نيللي» تقول:

- أجل «رولا» أنا «نيللي». أنا هنا لمساعدة الدكتور «ناجي». حاول

أن تتذكر يا «ناجي» كيف أنشأت الفيروس وكذلك الجين؟

أنظر لها بغيظ دون أن أرد. بينما «نيللي» تتجه نحو شاشة كبيرة، تعرض مراحل تطور الفيروس وانتشاره. ثم تخرج من حقيبتها كتاباً بداخله صورة لنا ونحن نلهو ونضحك حينما كنا في معمل الدكتور «فضالي»:

- «ناجي». هل تذكر هذه الصورة؟  
 - بالطبع أذكرها جيداً.  
 - لو تذكرتها ستتذكر كلمة المرور؟ أنت فقط من يعرفها، ما اسم الفيروس الذي قمت بإنشائه؟  
 أشعر برأسي يدور كأنه سيغمى علي، وأن روحي تسحب مني، أردد دون وعي أو إرادة.  
 - يوجينيا.  
 أسمع صوت «رولا» يتردد في أذني بنفس طريقتها الآلية وصوتها الرتيب:
- حسنا دكتور «ناجي» هذا هو اسم الفيروس «يوجينيا». افعل ما أقوله لك بالضبط. سوف تجد المحاقن في الدرج، افتح الثلاجة، ستجد مزرعة الفيروسات، خذ كبسولة رقم ١٠٠٠. وابدأ على الفور في تحضير الجين «ماو».
- نظرت لي «نيللي» مستفسرة:
- هل هناك شيء؟  
 أشرت إلى الشاشة وأنا أسألها:  
 - ما هذا؟  
 - ألا تعرفه؟  
 - أحاول ولكن لا أستطيع أن أتذكر.  
 - هناك بعض المعادلات والرموز.

- لا أستطيع معرفتها . كأنني أراها للمرة الأولى .
- حاول أن تتذكر الرقم السري . ألا توحى إليك حركة الفيروسات وهي تروح وتجيء على الشاشة بشيء؟
- لا شيء على الإطلاق . هي طلاسم بالنسبة لي الآن .
- تمد لي يدها بورقة فأسألها :
- ما هذه؟
- خريطة .
- أتناول منها الخريطة :
- ما هذه النقاط الحمراء؟
- راحت تقول بأسى :
- هذه النقاط الحمراء هي المناطق المصابة بالفيروس «يوجينيا» .
- عدت أسألها :
- والنقاط الزرقاء؟
- هي المناطق التي تم تجربة الجين «ماو» عليها ، حوادث القتل والذبح والاغتصاب هناك لا يمكن تصورها .
- ثم تسكت قليلاً لتضيف :
- أما هذه النقاط الصفراء فقد كانت قبل أسابيع ملاذات آمنة .
- ماذا تقصدين بكانت؟
- تنظر لي بأسى ثم تقول :

- لم تعد كذلك الآن. أصبحت مصابة بالفيروس «يوجينيا»  
والجين ماو.

تتداعى ذكرياتنا. فأسألها:

- كانت الاختبارات الأولية ناجحة ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

- حدث اندماج للفيروسات؛ قام بتعديل تأثير اللقاح، فبدلاً  
من القضاء على الفيروس تبين أنهما يشجعانه على التكاثر. فَيَأْكُلُ  
المريض من الداخل ويتركه هشاً حتى يموت.

قالت ذلك بينما كنا ننظر إلى الشاشة والفيروسات، تنقسم بشكل  
كبير والشريط الوراثي يتمدد أمامنا على الشاشة، ثم تقوم «نيللي»  
بعمل عدد من الاختبارات على العينات المعملية، وكأن قيساً من  
الذاكرة قد بزغ في عقلي فجأة، فرحت أصيح:

- يا إلهي. كأنني أسترد ذاكرتي.

صاحت بابتهاج:

- ذاكرتك تعود يا «ناجي». عليك أن تبذل جهداً أكبر. «ناجي».  
حاول أكثر. فأنا كنت مساعدتك.

تمسك يدي. أنظر في عينيها وأنا أقول:

- بل كنت أكثر من ذلك.

أقترب منها أضمرها بقوة، تتشابك يداها، تلتقي شفاهنا، نغرق في  
قبلة عميقة. تمرر إصبعها في كفي راسمة حروفاً وأرقاماً، بينما  
عقلي يلتقط أكواداً ورموزاً تحمل بين طياتها كلمة السر للقاح الرهيب  
«كاس ٩». نبدأ في تحضير اللقاح.

كنت قد التقطت الفيروس المطلوب تحضيره من مزرعة الفيروسات، ووضعت في قنينة خاصة، وبدأت أدفع داخل القنينة الإنزيم الخاص بتقسيم الشريط الوراثي للفيروس إلى عدد من القطع، ليتحول بعد ذلك من فيروس حامل هادئ ضعيف، إلى وحش قاتل شرس لا يعرف الرحمة ولا الهوادة، كنت أنطلق في عملي بإخلاص وأمانة نادرة، وكأن برنامجا خاصا يملئ علي فأسْتجيب. أصبح رغما عني:

- لقد تذكرت الآن الرقم الكودي للفيروس «يوجينيا».

تحدثني «رولا» بالحاح:

- أذكره لي يا «ناجي».

تصيح «نيللي» بانفعال:

- لا تستمع إلى «رولا». يا «ناجي».

بينما صوت «رولا» مرددة بنفس صوتها الآلي الرتيب يشوش علينا:

- قم بتصنيع الفيروس «يوجينيا» والجين «ماو» يا «ناجي»، وإلا

فلن ترى زوجتك وابنتك إلى الأبد.

أردد:

- زوجتي وابنتي؟

تصيح «نيللي» محاولة التغطية على صوت «رولا»:

- لا تصدقها يا «ناجي». «رولا» تلعب بعقلك. توهمك. صدقتي.

أترك القارورة جانبا وأصيح موجها حديثي إلى «نيللي»:

- إذن قولي لي الحقيقة يا «نيللي». هل لي زوجة وابنة؟  
تصمت «نيللي» بينما تواصل «رولا»:
- عليك أن تصدقني يا «ناجي». وإلا لن تراهما بعد اليوم.
- أين زوجتي؟ هل كان لدي زوجة وابنة وعائلة، تقول إنها سوف تؤذيهم إذا لم أسلمهم ما يريدون.
- تصيح «نيللي» بانفعال:
- لا تصدقها «ناجي». إنها تحاول الحصول على الفيروس والجين لنشرهما، ثم الحصول على اللقاح لبيعه بأعلى سعر، وبذلك ينتشر المرض بين الناس، ويتقاتلون فيما بينهم، فيموت من لا يملك ثمن اللقاح، ويعيش الأشد بأسا. هذه هي خطتهم الخبيثة. يموت الفقراء والضعفاء ويعيش الأقوياء الأغنياء فقط.
- تصيح «رولا»:
- هذا غير صحيح.
- فجأة تتحرك «نيللي» أمامي، والشرر يتطاير من عينيها، أطاحت بالكبسولة التي في يدي بعيدا وهي تصيح:
- لا. لن نسلمهم ما يريدون. لن نضع لهم الموت ليقتلوا به المزيد من البشر. يجب أن نترك هذا المكان فورا.
- ننتبه على صوت يزأر لا ندري من أين أتى، هل من السماعات المثبتة في رأسينا، أم من ميكروفونات خاصة مركزية:
- هل جنت «نيللي»؟ بإمكاننا أن نقضي عليك وعليه الآن.

صاحت «نيللي» وهي تطيح بالقوارير والقنينات بما فيها من فيروسات نائمة ساكنة، تنتظر اللحظة المواتية لتخرج من قمامها فتتشر الموت والعدم:

- لا يا «ناجي». لست أنت من يفعل ذلك، لقد استطاعوا خداعنا، قاموا بمحو جزء من ذاكرتنا، وأبقوا فقط على الجزء الذي يحقق لهم ما يريدون، إنشاء «يوجينيا»، ذلك الوباء القاتل ليستخدموه في إبادة الملايين، وكذلك الجين «ماو» الذي سيحول البشر جميعا إلى ضباع لا تعرف الرحمة ولا الشفقة. هيا نخرج من هنا فورا.

كنا ننطلق بسرعة خارج المنطقة المظلمة بينما صوت «رولا» يلاحقنا:

- لا تفعل ذلك يا «ناجي». لا تلتفت لهراء هذه المجنونة.  
رحنا نهبط الدرج الحديدي، بينما صفارات تدوي في كل مكان،  
وصوت «رولا» مازال يحدثني بنفس طريقتها الآلية:  
- لا تثق بها يا «ناجي». إنها تتلاعب بك.

تقترب مني «نيللي»:

- لقد جلبونا إلى هذا المكان بعد أن أفقدونا وعينا.

تصرخ «رولا» مهددة:

- «ناجي» لا تثق بها، «نيللي» عميلة يوجينية، كانت معنا منذ البداية، هي من نقلت لنا تجربتك مع الفيروس «يوجينيا» والجين «ماو»، ثم انشقت عنا لصالح عملاء جدد. هذه هي الحقيقة.

أشعر بدوار في رأسي أنتقل بعيني بين «نيللي» والسقف والجدران، وباب المعمل، وقد بدأ الشك يساورني تجاهها، وفي نفس الوقت عقلي لا يستطيع أن يصدق ما تقوله «رولا». بينما «رولا» تواصل في إلحاح: - صدقني يا «ناجي»، «نيللي» عميلة، هي من هربَّ السجين «إسماعيل الوتار»، وحوّرت الفيروس «يوجينيا»، وأحدثت الخلل بالجين «ماو»، هي من عاونتنا بالمجيء بك إلى هنا .

تصرخ «نيللي» وهي تجهش:

- لا تصدقها يا «ناجي»، إنها تكذب، وستقتلنا بمجرد حصولها على السر.

أشعر بالتردد والارتباك أنظر إلى «نيللي» بعدم ثقة. أتجه نحو الباب فتتظر لي «نيللي» بقلق، ثم تقول لي:

- اذهب يا «ناجي». لو ستصدقها اذهب وحدك، سلمها الأبحاث ولا تريني إياك بعد ذلك، أعطهم الفيروس الذي يريدونه، والجين الذي يرغبونه، لينشروا الموت في كل مكان وامنع اللقاح عن الناس. أتجه نحو باب المنطقة المظلمة، فتمسك «نيللي» بيدي وهي تقول ياأسة:

- لو خرجت من هذا الباب، فالأمر سيكون قد انتهى. ولن تراني مرة أخرى.

يأتيني صوت «رولا»:

- إنها تلعب بك يا «ناجي» لا تتخضع بها. زوجتك وابنتك في انتظارك خارج المبنى، وقد ينتقل إليهما الفيروس في أية لحظة ويموتان.

- ابنتي. ما كنت لأنسى ابنتي.

تصرخ «نيللي»:

- أنت ليس لديك زوجة ولا ابنة، هم من أوهموك بذلك، بعد أن وضعوا معلومات مضللة في الشريحة التي ألصقوها بفصك الصدغي، حتى تستجيب لهم.

لم أعد أصدق أحداً على الإطلاق. أجد نفسي خارج المبنى والظلام يحيط بي من كل جانب. بحاجة إلى يد قوية تهزني لتكتمل يقظتي، وكانت يد «نيللي» التي جذبتني خارج المنطقة المظلمة وهي تقول:

- «ناجي». سوف أخبرك بالحقيقة كاملة. فأنت لا تعرف شيئاً، كل ما تعرفه مجرد أوهام، صورة مزيفة حاولت أن ألصقها برأسك. سوف أحكي لك كل شيء.

تسكت قليلاً ثم تواصل:

- أول من رفع قضية ضد قوانين اليوجينيا، فتاة صغيرة تدعى «ليليان مراد» لم تتجاوز الرابعة عشرة، كانت داخل مصحة للمتخلفين عقلياً. على الرغم أن ليليان لم تكن تعاني من أي عيب عقلي على الإطلاق، ليليان كانت ضحية لأيوين قاسيين تخليا عنها؛ عقاباً لها عن جريمة لم ترتكبها، لمجرد أنها كانت لها أخت أصيبت بالجنون، يقال إنها تخلصت من حياتها بإلقاء نفسها من الطابق السابع بمستشفى الأمراض العقلية، وكانا يتوقعان لها نفس المصير. فأودعها نفس المستشفى التي قتلت فيه شقيقتها، وكأنها قطعة قمامة لا جدوى

منها . وهكذا انتهى بها الحال متدربة في المصححة . ولأنها كانت فتاة ذكية استطاعت أن تتعلم وتدخل الجامعة وتتفوق حتى على زملائها .  
تصمت ثم تواجهني قائلة :

- ومع ذلك لم تسلم ليليان من اليوجانيين وشركهم، تعرضت لعمليات استقطاب وسيطرة ومحو هوية لم يتعرض لها إنسان قط، وكان آخر هؤلاء اليوجانيين «بيتر شنودر» أحد قادة اليوجينيا العالمية. والذي جندها خصيصة للانتقام منك. ها أنا ذا أمامك «ليليان مراد»، أول ضحية من ضحايا «اليوجينيا».

كنت أسمع ما تقوله غير مصدق، وكأنني في مرحلة وسطى بين النوم واليقظة، أخرج من الباب. يبدأ الصوت في الضعف والتضخم والحدة حتى يتلاشى تماماً، أحاول الخروج أصعد سلماً. وأهبط سلماً.

كنت أحتفظ معي بكبسولة اللقاح الذي كنا قد أعدناه للرجل والد الطفل الذي ما زال ينتظر خارج المنطقة المظلمة، أعطيناه إياه. فالتقته وهو يقول:

- لن أنسى أبداً أنكما أنقذتما إبني.

يسكت قليلاً ثم ينظر لنا وهو يسأل في حيرة:

- هل حقا أنت من جلبت لنا هذا الفيروس. كيف طوعت لك نفسك

أن تنشئ هذا الفيروس الخطير، الذي يحصد الأرواح بلا هوادة؟

رحت أقول:

- لست أنا من أنشأ الفيروس ولا من أطلقه.

كنا قد وصلنا إلى الباب الخارجي، ولم نكدُ نبتعدُ عن المكان بضعة خطوات حتى فوجئنا بوابل من الطلقات يلاحقنا من كل جانب، صاح والد الطفل:  
- ابتعدا.

أسرعنا بالاختباء. وراح الرجل يطلق الرصاص على المهاجمين دفاعا عنا. ظللنا مختفيين خلف إحدى السيارات نراقب تبادل إطلاق النار بينهما، ثم أسرعنا وأنا و«نيللي» في اتجاه الباب الخارجي. لم أدرك أن «نيللي» أصيبت بطلق ناري إلا عندما استطعنا الفرار داخل سيارة نقلتنا إلى المستشفى العمومي، كانت «نيللي» ملقاة على المقعد الخلفي والدماغ تنزف منها بغزارة. رحمت أقول لها:  
- اطمئني يا «نيللي» سوف تعيشين.

هزت رأسها وراحت تقول بضعف:

- لا فائدة «ناجي». لقد تمكنوا من السيطرة علي، لكي أكون معهم، وأنفذ خططهم الشيطانية، بعد الحادث الذي وقع لك، أجبرني «بيتر شنودر» أن أقوم بتحويلك جينيا، لكي تنفذ ما يأمرؤك به عن طواعية. ذهبت إلى المستودع، فوجدتك بين الحياة والموت، اتصلت الوكالة بي وطلبت مني إنشاء «رولا»، لم تكن «رولا» سوى برنامج داخل ذاكرتك للسيطرة عليك، هذا البرنامج ليس أكثر من تطبيق ضمن برنامج ضخم، يهدف للسيطرة على العالم، منذ ذلك الحين وأنت تتجول في عالم قمت بإنشائه لك، أنا من قمت بتحويل الفيروس ووضعت فيه الصفة البديلة لتلبية لرغباتهم. ثم إعادة تشغيله مجددا.

حتى هذه اللحظة. وقد تم تحرير الفيروس وانتشر الوباء مثل تسونامي. معذرة يا حبيبي لم يكن الأمر بيدي. كانت هذه آخر كلمات نطقت بها «نيللي فؤاد» قبل أن تذهب في غيبوبة. وفي لحظات تحلق حولنا رجال الشرطة، وتم إلقاء القبض علينا، ثم على «إسماعيل الوتار». لم أقاوم، استسلمت لهم وعيني على «نيللي» راجيا إنقاذها قبل أن تلفظ أنفاسها.

(٣٥)

## المحاكمة

ترى ما هي العدالة؟ أليست العدالة هي ذلك المعنى المألوف  
لدينا من إعطاء كل ذي حق حقه؟  
وما هو الحق؟ ستقولون طبعاً إن الحق هو نصيب الإنسان في  
الحياة.

وما الحياة؟ الحياة هي ذلك السجن الأبدي الذي يحشر فيه البشر  
حشراً ليلاقوا فيه صنوف العذاب والهوان، فلا يخرجهم من سجنهم  
إلا الموت، فيشعرون بالحرية وتكون هذه هي العدالة.  
يقطع تفكيري صوت أجش ينادي:

- «ناجي خلوصي». «ناجي خلوصي».

مسكين هذا الرجل. «ناجي خلوصي». مازالوا يبحثون عنه، وما زال  
هو يبحث عن العدالة؛ العدالة ذلك الشيء المعنوي الكامن في نفوس  
البشر، ومن أجله صاروا يتخيلون حياة لا وجود لها؛ يوتوبيا جديدة  
أساسها تحقيق العدل والمساواة بين الناس. لكنهم يجدون أنفسهم  
أمام الحقيقة وجهاً لوجه، عندئذ سيفرون منها مرة أخرى، لكي  
يبحثوا عن العدالة في مكان وزمان آخرين.

عاد الصوت الأَجْش يصيح:

- «ناجي خلوصي».

«يا لكم من مجانيين. هل بهذه البساطة تبحثون عن الحقيقة؟  
أظنون أن «ناجي» هذا سيخرج لكم من تحت الأرض، ليقول لكم ها  
أنا ذا «ناجي خلوصي» الذي تبحثون عنه.»

امتلأت قاعة المحكمة بالحضور الذين أتوا من كل حدب وصوب؛  
بعضهم حقوقيون جاءوا وفي جعبتهم قرارات إدانتني، وصحفيون  
ومراسلون ومصورون ومدونون ويوتيوبرز، حاملين كاميراتهم، راحوا  
ينقلون كل ما يدور داخل قاعة المحكمة، وهواة جاءوا للتشفي  
ومشاهدة هذا المجنون، وهو يحاكم على الهوء. وسمعت وأنا جالس  
في مكاني كلمات مثل القاتل، السفاح، المجرم العتيد، وامتدت نحوي  
عدسة كاميرا، لتنتقل ملامح وجهي وحركاتي، ووجدتني دون أن أدري  
أقطب جبيني وأرفع حاجبي الأيسر، حتى أبدو في ملامح المجرمين  
عتيدي الإجرام.

وعاد الصوت الأَجْش ينادي:

- «ناجي خلوصي».

أضحك ساخرا وأنا أردد.

أنا الناجي الوحيد الذي تمكّنت من الخروج من الجانب الآخر  
لليوجينيا، ومحاولة إكمال حياتي بعد كل الصدمات التي تعرضت

لها سواء نتيجة حرب أو اعتداء جنسي أو أعمال وحشية أو مذابح أو تغيير جيني، أو تسريب فيروسي، أو . . .

انتبعت على دخول القاضي وأعضاء هيئة المحكمة، وصاح رجل بصوت جهوري:

- محكمة.

- القضية رقم (٢٨٥٥) المتهم فيها الدكتور «ناجي مختار خلوصي». ممثل النيابة يتفضل.

مضى ممثل النيابة يرغي ويزبد، وهو يستعرض وقائع قضية القرن، معدداً ما اقترفته من آثام في حق البشرية؛ راح يتكلم بصوت جهوري ويدها تلوحان يميناً ويساراً مع كلماته:

- سيدي الرئيس حضرات المستشارين. إن هذا المتهم المائل أمامكم آفة يجب القضاء عليها، فنحن أمام قضية ربما تواجهنا لأول مرة في التاريخ، ولن تكون الأخيرة بالطبع، إجراء تجربة فريدة من نوعها، بدفع فيروس خطير ليتحول إلى وباء فتاك، قضى على الآلاف من البشر، ومازال يحصد المئات بلا هوادة. قام المتهم بهذا الفعل عامداً متعمداً، لذلك فالنيابة ترجو توقيع أقصى العقوبة على المتهم «ناجي خلوصي»، دون أن تأخذكم به رحمة أو هوادة، ولا تغرنكم مظاهر اللامبالاة البادية على وجهه.

كنت جالساً داخل القفص أستمع كالمخدر، أشعر بتنميل متواصل داخل رأسي من أثر موجات الكهرباء والإشعاعات التي أخذتها،

جسدي يموج بمشاعر متباينة من الألم والتقلص والانتفاض، بسبب كم الهرمونات والإنزيمات التي تم حقني بها، لحملي على الاعتراف، ومع ذلك لم أتكلم، فيماذا أعترف؟ وأنا توجه لى تهمة لا أدري عنها شيئاً، ورحت أنظر من خلال القضبان الحديدية إلى ما لا نهاية، حتى عندما ابترني القاضي سائلاً إياي:

- «ناجي خلوصي»، ما قولك في التهمة المنسوبة إليك؟ أ مازلت تؤثر الصمت يا «ناجي». على رسلك.

رحت أنظر إليه بعينين فقدت قدرتهما على تمييز الواقع، وبدت الوجوه والأشياء من حولي كخيالات وضلالات وهلاوس، «بالطبع لن أتكلم، فمن ذا الذي ينسب لنفسه جريمة لم يقترفها».

وجاء دور الدفاع. ووجدت عشرات المحامين من قبل أسر الضحايا مطالبين بالقصاص، بينهم «شادي أمين»، الذي راح يصب علي جام غله وحقده، مبيناً لهيئة المحكمة ميولي الإجرامية العتيدة التي لازمتني منذ صباي. وبالطبع ألحق كل ما قدمته له من ملفات ومستندات وصور وفيديوهات وأدلة بملف القضية لإدانتني.

وطلبت هيئة المحكمة أن يتطوع أحد المحامين للدفاع عني، لكن لم يجسر أحد أن يترافع عن شخص تسبب في مقتل الآلاف، خاصة وأن الرأي العام كله كان ضدي وخرجت آلاف المواقع للمطالبة برأسي. إلا شخص واحد لم يكن الزحام الرهيب ليسمح لي برؤيته، لكنه تحرك نحو هيئة المحكمة طالبا الكلمة:

- أنا المستشار «مختار خلوصي» حضرت متطوعاً للدفاع عن ابني «ناجي مختار خلوصي». لذلك أرجو التأجيل لحين الاطلاع على ملف القضية.

لم أصدق عيني ولا أذني ولا حواسي، بل إحساس آخر راح يتغلل بداخلي ليحولني إنساناً آخر دون أن يحدث لي تعديل جيني. خاصة عندما عاد والدي إلى مكانه بعد أن وافقت هيئة المحكمة على اختياره للدفاع عني. ورأيت أُمي تجلس بجانبه وهي تبكي، فيضمها إليه ويربت عليها مطمئناً إياها. لم أتمالك، وراحت الدموع تنهمر من عيني، لا أدري إن كانت دموع الندم لأنني كنت أنظر لوالدي تلك النظرة الضيقة، أم دموع التوبة من كل الذنوب التي اقترفتها طوال حياتي. فإذا كان والدي بداخله كل هذه الرحمة، فما بالناس برب العالمين. لم أكن أدرك أن الله طيب ولطيف ورحيم بنا إلى هذا الحد. أجل إن الله موجود.

عندئذ رفعت يدي طالباً من هيئة المحكمة الكلمة. وبعد أن تداولت هيئة المحكمة أخذ الرأي بالموافقة أعطتني الفرصة للكلام. واتجهت نحوى الكاميرات بينما تصدرت شاشة كبيرة ركناً من المحكمة ظهرت عليها وبدأت مرافعتي بقولي:

- أن لي أن أخلع معطف الطبيب لأرتدي روب المحاماة. لكنني لن أدافع عن نفسي، بل سأعترف أمامكم بأنني ارتكبت خطأ غير مقصود، بإجراء التجربة على المتهم «إسماعيل خليل الوتار» دون إذن مسبق؛ بغض النظر عما إذا كان مقصدي هو إنقاذ البشرية من

خطر أكبر محقق بها، وإنما سأحدث كشاهد، فأنا الشاهد الوحيد على أن «الوتار» بريء. فهناك متهم آخر أشد خطورة، هو من قام بزرع جين «ماو» بخلايا الوتار، وهو من نشر هذا الجين الخطير ليتفشى فينا، مما أحدث خلافاً في سلوك البشر، ليصبحوا مجرمين وقتلة، وراح المجرم الحقيقي يوجه ضحيته «إسماعيل الوتار» وغيره من الضحايا ليقوموا بجرائمهم دون إرادة. أما «نيللي فؤاد»؛ فقد أجروا عليها عمليات تغيير جيني، لتكون تحت سيطرتهم، ويحركونها كالدمية في أيديهم.

تصاعدت مهمات من داخل القاعة وصيحات مابين الدهشة وعدم التصديق، حتى أخرجت تقريراً كان معي قدمته إلى حارسي الخاص، لتوصيله إلى هيئة المحكمة، ورحت أعقب:

- داخل كل منا قاتل يحمل سكيناً، يتخفى وراء سيماء التحضر والرقى، يحاول أن يكون مهذباً ودوداً، لكنه قاتل بكل معنى الكلمة، لو استطاع أن يتخلص منك لفعّل، يضمرك لك الكراهية والحقد بدون سبب، فيتصد حركاتك، ويحصي خطواتك، ويفشي أسرارك، يسلبك حقلك، ويشوه سيرتك، ويوقع بينك وبين الآخرين. لذلك أرجو من حضراتكم الاطلاع على هذا التقرير، ففيه كل ما يتعلق بجين «ماو»، وتأثيره على العقل والسلوك، فعندما ارتكب «الوتار» كان مسلوب الإرادة، بسبب قيام الشخص المجهول بوضع جين «ماو» على خلاياه، كما هو مبين بالتقرير الذي أمام حضراتكم. لذلك أطلب من حضراتكم الحكم ببراءة المتهم «إسماعيل خليل الوتار» من التهم المنسوبة إليه،

وكذلك «نيللي فؤاد»، مع سرعة ضبط وإحضار «السيد وهدان» الذي وجدت الفتاة في قصره ليلة مقتلها، وكذلك «السيد أدهم» شريكه في جميع هذه الجرائم والبروفيسور «بيتر شنودر» وآخرين.

تداول القضاة بعض الوقت ثم سألني رئيس المحكمة:

- هل لديك شيء آخر تريد أن تقوله يا «ناجي»؟

- أجل يا سيادة الرئيس، يجب أن يعلم الجميع أننا في خضم حرب ضروس، رحمت أجمع أدلتها من فيروسات أطلقت خصيصا للقضاء علينا. ودائما كانت هناك عقول شريرة تفكر في القضاء علينا نحن البشر، وكلما قمت بانتزاع صفة من صفات الفيروس للقضاء عليه، كان هذا العقل يعمل لتنفيذ مخططه بوضع صفة بديلة لقتل المئات من البشر، هي حرب فيروسية بامتياز، لم تطلق فيها رصاصة واحدة، بل كانت أسلحتها وذخيرتها أشد فتكا وأسرع تأثيرا وأدق تنشيئا. فالرصاصة ليست أكثر من فيروس ضئيل ضئيل لا يرى بالعين المجردة، ويحمل بداخله الموت والهلاك. ساعد هذا على إبادة الآلاف من البشر في جميع أنحاء العالم. فالأمر لا يعدو عن قص أو إضافة جزء أو أكثر على الشريط الوراثي للفيروس، ووضع بعض صفات الفئة المستهدفة سواء كانت دولة بذاتها أو جماعة أو قبيلة، أو حتى شخص. ثم إطلاقه ليضرب الفيروس ضربته. لقد اتخذ الجيل الجديد من الفيروسات اتجاهها آخر، فيبيد شعوبا دون غيرها، وجماعات بذاتها، وألوانا بعينها، حتى وصل الأمر إلى توجيه الضربات الفيروسية إلى أشخاص محددين.

أسكت قليلا لأبتلع ريقى ثم أوصل:

- أتعهد إليكم بأننى سأواصل الحرب عليهم، فإذا كانوا هم قد نجحوا في قتل الآلاف بعمل تحويلات على الجين «ما»، سأقوم بمواجهتهم بجين آخر أشد بطشاً، يبطل عملهم، وفي نفس الوقت يقضي عليهم. علينا جميعاً أن نتعاون معاً لمواجهة هؤلاء اليوجينيين وكشفهم ومحاكمتهم، فهم لا يمثلون دولة ولا جماعة ولا حزباً، إنما ينتشرون في كل أنحاء الكوكب كالجراد بهدف إنقاص عدد البشر على ظهر الكوكب إلى أقل حد، وعندئذ سيكون الكوكب ملكاً لهم. لقد استغرق تطور الإنسان عشرات الآلاف من السنين، أما إعادة تشكيله على يد هؤلاء اليوجينيين فلن يستغرق سوى أيام قليلة.

انتهيت من مرافعتي وسط همهمات الحاضرين، وصاح رئيس المحكمة:

- أُجِلَّتِ القضية إلى جلسة ١٧ أبريل المقبل. رفعت الجلسة.

ضجت القاعة بالتصفيق وترددت هتافات طالبة البراءة لي، بينما أسرع والدي إلي وهم يطمئنانني، ثم اتجه نحوى الدكتور «فضالي» وبرفقته «نيللي فؤاد» وقد ربطت ذراعها من أثر الإصابة، أمسكت بيدي، وهي تشد عليها وتقول مطمئنة إياي:

- اطمئن يا «ناجي» براءة ياذن الله.

رحت أرنو بعيني إلى والدي، وقلت محدثاً نيللي ثم الدكتور فضالي:

- لم يعد الأمر يعنيني يا نيللي، بعد أن أدرك الناس في كل مكان

مدى الخطر الذي يحيق بهم، لكن الشيء الذي أتيقن منه، أن لهذا الكوكب إلها واحدا، طيب جداً ولطيف للغاية. هو القادر على حماية كل البشر، إن الله موجود يا نبلي، موجود يا دكتور «فضالي». الله موجود . موجود . موجود .

النهاية



## المؤلف في سطور د. صلاح معاطي

- كاتب روائي وإعلامي، دكتوراه في العلوم السياسية جامعة القاهرة.
- تتلمذ على يد الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقي وفي مجال الخيال العلمي الأستاذ نهاد شريف.
- رئيس شعبة الخيال العلمي باتحاد كتاب مصر، وعضو مؤسس برابطة كتاب الخيال العلمي بدمشق.
- عضو اتحاد كتاب مصر، عضو نادي القصة، عضو جمعية الأدباء، عضو نقابة المهن السينمائية.
- نشر في العديد من الصحف والمجلات العربية والمصرية.
- أصدر ما يقرب من ثمانين كتابا ما بين الرواية والقصة القصيرة والمسرحية والدراسات الأدبية وقصص الأطفال منها: أنقذوا هذا الكوكب، العمر خمس دقائق، وصية صاحب القنديل، السلمانية، عائلة السيد رقم ١، عيون أينشتين، أسير الهواء، بونجا، سرفاكت، والخيال العلمي بين العلم والخرافة غيرها.
- ترجمت بعض هذه الأعمال إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية واللغة القازاقية بكزاخستان - كرواية الكوكب الجنة وخزانة شمائل وشيفرة آدم وعيون أينشتين..
- حصل على العديد من الجوائز الأدبية منها الجائزة الأولى في الرواية من نادي القصة بمصر والجائزة الأولى بجمعية الأدباء عن مجموعة « بدرية بالخلطة السرية وجائزة إحسان عبد القدوس للرواية عن رواية «خزانة شمائل» عام ٢٠٠٥ وجائزة هيئة قصور الثقافة في

القصة القصيرة عام ٢٠١٨ عن مجموعة قابل للكسر، وجائزة رواية الخيال العلمي باتحاد كتاب مصر عام ٢٠١٩، وشهادة تقدير بمجمل الأعمال من مؤتمر الخيال العلمي الأول بدمشق عام ٢٠٠٩. أهم الأعمال الدرامية:

سهرة الحب فوق السطوح، مسلسل البحث عن شمندل، مسلسل السلمانية، مسلسل خليها على الله، مسلسل أحلام كومبارس، مسلسل صورة وأسطورة: إنتاج الفضائية السورية.

أهم الأعمال الصادرة:

١. السلمانية ، رواية، الدار العربية للعلوم بيروت، ٢٠٠٩.
٢. خزانة شمائل، رواية تاريخية، الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٨.
٣. شيفرة آدم، رواية، دار الطلائع، ٢٠١٠.
٤. عائلة السيد رقم ١، سلسلة المسرح العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩.
٥. عيون أينشتين، مجموعة قصصية من الخيال العلمي، ٢٠٠٦، هيئة الكتاب.

٦. تاكيون، رواية من الخيال العلمي، الهيئة السورية العامة للكتاب، ٢٠٢٤.

٧. الخروج من الكهف، روايات من الخيال العلمي، وزارة الثقافة

السورية، ٢٠١٨.

٨. الخلايا الغاضبة، مجموعة قصصية، هيئة الكتاب السورية، ٢٠١٥.

٩. سرفاكت، رواية من الخيال العلمي، وزارة الثقافة السورية، ٢٠١٧.

## المحتوى

٥	ناجي خلوصي
١٠	الاختيار
١٦	«داليا سعفان»
٢٣	أورورا بار
٣٠	عوالم خفية
٣٥	شيطان في قاعة المحكمة
٤٢	مثلي
٤٧	إلهان
٥٠	اليوجينيون الجدد
٥٩	الإغواء الأخير
٦٤	بين السماء والأرض
٦٨	بيتر شنودر
٧٤	ماندو وبولو
٧٧	مساومة
٨٤	«نيللي فؤاد»
٨٨	مستشفى السجن
٩٣	نادي تحرير المرأة
٩٨	سر الأسرار

١٠٨	قوس قزح
١١٣	يوجينيا
١١٩	الوتار
١٢٨	ماو ماو
١٣٢	الحجرة ٢٥
١٣٦	فيروس في قم قم
١٤١	كابوس
١٤٤	عشماوي في بيتنا
١٤٩	كريسبر كاس ٩
١٥٤	موسم فقس العقارب
١٦٢	اعتقال
١٦٥	زنازة ٧
١٧٠	الهروب
١٧٤	عين الحياة
١٨٢	المنطقة المظلمة
١٩١	ذاكرة على كف ناعمة
٢٠٣	المحاكمة

# يوجينيا

«أنا الخلد الذي يصنع الجدل بين النقص والكمال، أنا الجلك في عتمة الوجد يعانق الجمال، أنا الخطر عند اكتمال القمر في وهدة الخيال». إننا نتاج جيناتنا، والسبب فيما نرتكبه كل لحظة من جرائم وكوارث؛ أن جيناتنا هي التي تدفعنا إلى ذلك. فإذا كان بعض المنجمين يعتقدون أن مستقبلنا مكتوب في النجوم، فأؤكد لك الآن أنه مكتوب داخل جيناتنا».

كنت أردد هذه الكلمات وأنا بين النوم واليقظة كمرثية أو أرجوزة ملحمية، بينما تتوالى على عيني خيالات لوجوه أعرفها جيداً، لكنني لا أذكرها وكأنني أصبحت ذاكرة منقوصة ترى نصف الحقيقة، فلم أدر إن كان ما أراه هو جزء من منامي، أو بعض من أحلام يقظتي.

أين أنا؟ أفتح عيني ثانية. أرى كل شيء حولي كأنه ضباب ودخان، ولا أجد إنساناً قط. أحاول الوقوف فلا أستطيع، ما زلت أشعر بضداع رهيب، وبالدوار نفسه؟ لكنني كنت قد التقيت بعضاً من ذاكرتي المنسية.



[www.syrbook.gov.sy](http://www.syrbook.gov.sy)

E-mail: [info@syrbook.gov.sy](mailto:info@syrbook.gov.sy)

هاتف: ٣٣٢٩٨١٥ - ٣٣٢٩٨١٦

مصابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٢٦ م